الفصل الأول
طوفان الشبهات والافتراءات

لقد عرفت حياتنا الفكرية نزعات عنصرية، وتوجهات طائفية، ومذاهب فكرية، سعى أصحابها إلى تجريد مصر من هويتها العربية الإسلامية. وفي سبيل ذلك سعى بعض أصحاب هذه النزعات والتوجهات إلى الافتراء على الفتوحات الإسلامية، وعلى الفتح الإسلامي لمصر على وجه الخصوص؛ فكان طوفان الشبهات والافـتراءات التي نسردها والتي نفندها بالشهادات الموثقة والوثائق الشاهدة، وأيضًا بكشف الزيف والتناقض اللذين وقع فيهما أصحاب هذه الشبهات والافتراءات.

● ولأن الفتح الإسلامي لمصر قد كان ثمرة من ثمرات ظهور الإسلام، هذا الدين الذي جاء كتابه مصدقًا لما بين يديه من كتاب والذي جاء رسوله ﷺ خاتمًا لإخوانه الأنبياء والمرسلين. فلقد ارتفع سقف العداء للفتح الإسلامي لمصر فشمل الدعوة لنقض عرى الإسلام ذاته بل ونقض عرى كل الديانات السماوية والدعوة إلى الارتداد إلى الفرعونية العرقية والحضارية بل والدينية أيضًا!!.

فصدر كتاب كبير حمل غلافه أسماء لا سابقة لها في التأليف! ووزّع مجانًا ـ بل وخلسة ـ في بعض المؤتمرات الجامعية!؛ جاءت فيه الدعوة إلى:

١ـ الانقلاب على الإسلام ـ ومعه الديانات السماوية الأخرى والعودة للوثنية الفرعونية وحكمها العسكري، وذلك «باعتبار كل حاكم غير مصري الأصل فإن دولته هي دولة احتلال. ودول الاحتلال تمتد من عام ٣٣٢ قبل الميلاد وحتى عام ١٩٥٢م، وقيام الجمهورية والدولة ـ الثانية ـ بعد الدولة الفرعونية؛ حيث استمرت مصر محتلة طوال ٢٢٨٤ سنة، فمصر أصبحت أطول مستعمرة في العالم. إن عصور ملوك الفراعنة، ابتداءً من الملك مينا ٣٢٠٠ ق.م حتى بدء الاحتلال الاستيطاني اليوناني عام ٣٣٢ ق.م؛ هي الدولة المصرية القومية الأولى، والفترات ما بين الفرعون نفتانيو (٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م) والرئيس محمد نجيب (١٣١٩ ـ ١٤٠٤هـ ١٩٠١ ـ ١٩٨٤م) هي فترة حكم أجنبي، وحكام أجانب، ودول احتلال[١].

(١) أحمد عاشور، صبحي السيد عاشور. [الوطن الأم: دراسة في الثقافة القومية المصرية] ص٦، ٨، ٤١٩، ٤٢٤. الطبعة الأولى ١٩٩٩.. بدون ناشر.

obeikandl.com

وأمام هذا «المفهوم العنصري» لمعنى «الاستقلال»، والذي جرد الإنسان المصري من «صناعة الحضارة»، نتساءل:

– هل دولة نظام يوليو سنة ١٩٥٢م مصرية- بهذا الفهم العنصري العرقي للمصرية -؟!. إن اللواء محمد نجيب - أول رئيس لهذه الدولة - نصف سوداني وإن جمال عبد الناصر (١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ- ١٩١٨ - ١٩٧٠م) الحاكم الحقيقي لدولة يوليو سنة ١٩٥٢م. هو عربي من بني مر، وإن خليفته محمد أنور السادات (١٣٣٧ - ١٤٠١هـ- ١٩١٨ - ١٩٨١م) هو من آل البيت - قرشي من بني هاشم -، كما أن هذه الدولة كانت دولة القومية العربية والانتماء للإسلام، فأين هي «المصرية العنصرية» التي تجعل دولة سنة ١٩٥٢م استقلالاً قطع ويقطع هذا «الاحتلال» الذي قارب امتداده (٢٢٨٤عامًا)؟![1].

٢- وفوق هذه العنصرية، التي تحكم على مصر وتاريخها بالإعدام جاءت في هذا الكتاب -[الوطن الأم]- الدعوة إلى تجريد مصر من كل آثار الديانات السماوية، والعودة بأهلها إلى عبادة «التاسوع المصري المقدس»، إذ «لن يعود الوطن المصري ليتبوأ مكانته اللائقة بتاريخه إلا بإعادة التاسوع المصري المقدس الخالد في قلوب الشعب عن طريق تسييره في ربوع الوطن، وذلك بمراجعة كل التشريعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واستبعاد وتجريم أي نشاط لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق قيمة من القيم التسع للتاسوع المصري المقدس».

أي أن المطلوب - لاستقلال مصر- رفض التوحيد الديني الذي جاءت به الديانات السماوية، وإحلال التاسوع المصري الفرعوني المقدس محل هذا التوحيد!.

وهنا يتساءل القارئ عن ماهية هذا التاسوع المقدس؟.

والجواب - في علم المصريات القديم - يقول: «إن التاسوع المصري المقدس: هو مجموعة الآلهة التسعة العظمى التي كونت «الأسر الإلهية» لمدينة «أون» - هيليوبوليس القديمة - وهم - عند المصري القديم - القوى الطبيعية التي يمكن أن تدخل في تكوين العالم. وهذا التاسوع يتكون من:

(١) المرجع السابق. ص٤٢٤.

obeikandl.com

١ـ الخالق «آتوم» الذي خلق نفسه من نفسه، فكان بذلك أول الخلق، وما لبث أن خلق من نفسه معبودين، هما:

٢ـ «شو» ـ رب الفضاء ـ.

٣ـ و«تفنوت» ـ ربة الرطوبة ـ.

خلقهما بأن تناول من نفسه وبيده كمية من المنيّ وضعها في فمه بين أسنانه وشفتيه، ثم عطس، فكان «شو»، وتفل، فكانت «تفنوت».

وتزوج المعبودان وأنجبا:

٤ـ «توت» ـ ربة السماء ـ.

٥ـ و«جب» ـ رب الأرض.

وتزوجا أيضًا وأنجبا أربعة، هم:

٦ـ أوزيريس.

٧ـ وإيزيس.

٨ـ وست.

٩ـ ونفتيس[١].

نعم! هذا هو التاسوع المصري المقدس، الذي يريده أعداء الهوية الإسلامية لمصر، وخصوم الفتح الإسلامي لمصر، من دعاة العنصرية الفرعونية، معبودًا بديلًا للتوحيد الديني الذي جاءت به ديانات السماء، والذي بلغ قمة التنزيه والتجريد في الإسلام.

ولم يسأل أصحاب هذه الدعوة أنفسهم:

ـ هل كانت دولة يوليو سنة ١٩٥٢م عابدة لهذا التاسوع، بدلًا من الله الواحد الأحد، حتى تكون ـ عندهم ـ هي الدولة المصرية الثانية، التي قطعت تاريخ الاحتلال لمصر ـ الذي دام ٢٢٨٤عامًا ـ؟!.

٣ـ وفوق ذلك، يعتبر أصحاب هذه الدعاوى «عسكرة الدولة» خصوصية من خصائص النموذج الفرعوني، الذي إليه يدعون! «فلقد كان من ثوابت الدولة المصرية القومية الأولى أن يحكمها الفرعون الملك، وهو دائمًا القائد الأعلى للقوات المسلحة؛ فالنظام المصري الذي ترأسه حاكم من المؤسسة العسكرية قائد

(١) [الموسوعة المصرية] المجلد الأول. الجزء الأول. ص١٦٨، ١٦٩. طبعة وزارة الثقافة والإعلام. القاهرة.

obeikandl.com

أعلى للجيوش هو تقليد مصري أصيل يشكل استمرارية حقيقية للتاريخ»![1]

تلك هي الأركان الثلاثة لثقافة الوطن الأم ـ التي إليها يدعون ـ:

أ ـ الفرعونية العنصرية ـ الإثنية ـ.

ب ـ وعبادة التاسوع الفرعوني المقدس.

جـ ـ والحكم العسكري للدولة.

إنها معالم حكم النظام المثالي المعبر عن استقلال الوطن، والذي يقولون في وصفه ومديحه: «إن آلهة التاسوع المقدس عادلة، فهي التي خلقت المصريين متساويين ولأن الملك إله؛ فلابد أن يراعي سيره العدل وألا يظلم رعيته فتراث مصر القديمة يكاد يخلو من خطيئة واحدة على المستوى الأخلاقي والإنساني. إنها صورة رائعة رغم بعد الزمن لحقوق الإنسان»[2].

لكن أصحاب هذه الدعاوى، التي ترسم هذه الصورة المثالية للوثنية الفرعونية، وعنصريتها الإثنية، ونظامها العسكري، قد وقعوا ـ هم أنفسهم ـ في سلسلة من التناقضات التي تبدد هذه الصورة المثالية التي فيها يتغزلون.

.. فلقد أوردوا صورة لخطاب من حاكم «حمص» إلى الفرعون يقول له فيه: «أنا خادمك أنا عبدك»! ورسالة أخرى من أحد الأمراء «أبيمالك» للفرعون يقول فيها: «أتشرف بأن أسجد بين يدي سيدي سبع مرات، وسبع مرات أخرى، فأنا الأديم الذي تحت خفي سيدي الملك»!. وفي خطاب آخر يتحدث صاحبه إلى الفرعون قائلًا: «أنا الأرض التي تطؤها قدماك، والمقعد الذي تجلس عليه، والمسند الذي تضع عليه قدميك»!. وفي خطاب آخر يقول صاحبه للفرعون: «أنا كلبك»[3]!

أما النظام العسكري ـ الذي جعله أصحاب هذه الدعاوى من خصائص هذا النظام المثالي، الذي دعَوْا للعودة إليه بديلًا عن الإسلام وهويته ونظامه وتاريخه وحضارته؛ فلقد اعترفوا بأنه السبب في اضمحلال هذا النظام ـ الذي بشروا بالعودة إليه ـ!!؛ فقالوا: «**إن دور العسكريين داخليًّا، قد خلق طبقة عسكرية امتلكت أهم موارد البلاد، وانصرفت إلى الصراع على السلطة**. ومع

(١) [الوطن الأم] ص٤٢٥.

(٢) المرجع السابق. ص٣٤، ٣٥.

(٣) المرجع السابق. ص ٣٦.

obeikandi.com

هذه الطبقة العسكرية كانت المؤسسة الدينية ـ الفرعون العسكري وكهنة التاسوع المقدس ـ الذين تضخمت ملكيتهم بشكل غير مسبوق. فثروة الإله رع بلغت ١٠٪ من الأرض المزروعة وله ٨٦,٥٠٠ من الرقيق، ونحو ٤٢١ ألف رأس ماشية، وحدائق في طول البلاد وعرضها، ومناجم الذهب في النوبة، وتسع مدن سورية تأتي ضرائبها ومحاصيلها بانتظام.

أما ثروات معبد آمون في طيبة، فكانت تعادل ثروات الإله في عين شمس بستة أضعاف، وثرواته في منف بستة وعشرين ضعفًا، فمعبد طيبة يمتلك من الفضة نحو ٧٩٧,٨٠٥ كجم، ومعبد منف ٩,٣٥٩كجم. ومن الحبوب نجد الأرقام على التوالي ٣,٩,٩٥٠ كيسًا و٧٧,١٠٠ كيسًا و٦٧,٤٠٠ كيسًا»[1] .. الخ الخ.

ومع كل هذا البلاء ـ الذي اعترف به أصحاب هذه الدعاوى ـ **ظلوا يتحدثون عن الفتح الإسلامي باعتباره «احتلالًا رعويًّا قاسيًا، أوصل مصر إلى الحضيض الثقافي والسكاني وممثلًا لدور من أدوار الصراع بين الرمل والطين طوال ١١٦٤ سنة. أتاح للبدو، وهم تراب البشرية المخلخل المشتت المشرد، أن يطغوا على أقدم مجتمع زراعي في العالم»[2]!**

وهنا نتساءل:

ـ هل ثقافة الإسلام ـ ثقافة العدل والتوحيد والتنزيه، وتكريم مطلق بني آدم ـ أدني من ثقافة الوثنية الفرعونية؟!

ـ وهل يستوي كل رمل؟ وفيه امرؤ القيس وفيه أبو جهل؟!.

ـ وهل صحابة رسول الله ﷺ خريجوا مدرسة النبوة، الذين جسدوا الشمائل الإسلامية، هم تراب البشرية المخلخل المشتت المشرد؟!

ـ وهل خلت مصر من الرمل؟ أم أن نسبة الرمل فيها تزيد على ٩٥٪ من أرضها؟

ـ وهل يمكن لعاقل ـ في أي وطن من الأوطان، وحضارة من الحضارات ـ أن يدعو قومه إلى التحرر من تاريخهم وهويتهم وواقعهم، والعودة عن مراحل النضج الحضاري إلى مرحلة الطفولة ـ مهما كانت صورتها في الخيال ـ؟. وكيف ستكون صورة

(١) المرجع السابق. ص ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) المرجع السابق. ص١١٧، ١١٨.

obeikandl.com

دول العالم وحضاراته إذا تخيلنا ـ مجرد تخيل ـ تحقيق مثل هذه الدعوات؟!

لقد استفادت الحضارة الغربية ـ في طفولتها الإغريقية ـ من الحضارة الشرقية ـ في طفولتها الفرعونية ـ لكنها في مرحلة نضجها الحديث لم تعد لاستلهام الفرعونية، وإنما استلهمت الحضارة الإسلامية، التي مثلت نضج الحضارات الشرقية.

والحضارات والأمم والشعوب مثلها كمثل الكائن الإنساني الحي، لا يقيم قطيعة مع طفولته، ولكنه لا يعود عن مرحلة نضجه إلى مرحلة طفولته بأي حال من الأحوال.

ـ ثم هل يمكن أو يجوز ـ في النظر إلى تاريخ «الفتوحات» ـ التسوية بين «فاتح» تمصر، وكان فتحه إزالة لاحتلال وقهر حضاري، وبين «فاتح» قاهر ظلت مصر تقاومه حتى لفظته، واستعصت على الاندماج في عقيدته وثقافته ولغته ـ رغم دوام قهره ألف عام ـ بينما اندمجت في العقيدة والثقافة واللغة التي جاء بها الفتح الإسلامي، فأصبحت حصنها الذي دافعت عنه ضد الفرنسة والجلنزة والتتريك؟

ـ وهل يجوز وصف الفتح الإسلامي «بالاحتلال الاستيطاني»[1] مع أن العرب الفاتحين قد ظلوا جندًا، منعوا من تملك الأرض فلم يكونوا احتلالًا استيطانيًّا، كما عرفنا هذا النظام في الفرنسيين «المعمرين» بالجزائر والأوروبيين البيض في جنوبي أفريقيا والصهاينة المستوطنين في فلسطين ومن قبلهم الصليبيون في المشرق العربي؟!

ـ وهل يجوز لعاقل ـ مهما بلغ تجنيه على الفتح الإسلامي والهوية الإسلامية ـ أن يقول: «إن الثقافات الواردة من خارج الحدود المصرية هي الأدنى بالنسبة للثقافة المصرية الأصيلة»؟!

فهل المسيحية ـ وهي وافدة على مصر ـ وهل الإسلام ـ وهو وافد على مصر ـ أدنى من ثقافة ـ الوثنية المصرية ـ وثنية التاسوع المقدس ـ الذي تناول كبيره «آتوم» كمية من المني وضعها بين أسنانه وشفتيه، ثم عطس وتفل فكان خلق بقية آلهة هذا التاسوع؟!

ثم ما هي هذه «الثقافة المصرية الأصيلة»؟ أهي وثنية التاسوع؟ أم توحيد إخناتون؟ أم توحيد إدريس ـ عليه السلام؟

(١) المرجع السابق ص٦٠

obeikandi.com

ولم لا يعد التوحيد الإسلامي ـ ومن قبله التوحيد المسيحي ـ هو التجديد لثقافة التوحيد الإدريسية التي بدأت بها الثقافة المصرية الأصيلة؟[١].

***

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ذهب أعداء الهوية الإسلامية، وخصوم الفتح الإسلامي لمصر إلى تشويه صورة هذا الفتح المبين فقالوا:

٤ـ «إن الرواية اليهودية عن مصر، والرؤية اليهودية لمصر قد تحولت إلى رؤية عربية، فكانت عملية مسخ وتشويه كاملة قام بها العرب صقلًا وتهذيبًا لروايات توراتية يهودية كانت بالأساس محاولة لهدم الشخصية القومية»[٢].

فهل هذا صحيح؟

ـ إن مصر في الرواية اليهودية ملعونة، ومحكوم عليها بالخراب [سفر يوئيل ـ إصحاح ٣: ١٩] بينما مصر ـ في الرؤية الإسلامية ـ هي التي امتازت بحديث القرآن عنها في خمس وعشرين موضعًا، كما امتازت بوصية رسول الإسلام ﷺ بأهلها تلك الوصية التي تحولت إلى فن من فنون التأليف عند المؤرخين المسلمين عنوانه «فضائل مصر». رأيناه كتبًا بهذا العنوان، أو فصولًا تتصدر كتب التاريخ.

كذلك، فإن الرواية الإسلامية ـ القرآنية ـ لصراع موسى – عليه السلام – وفرعون، ليست هي الرواية التوراتية؛ فالرواية التوراتية ـ في أسفار العهد القديم ـ تعمم العداء واللعنة على مصر وشعبها، بينما الرواية الإسلامية تقف بالعداء واللعنة عند فرعون وملئه؛ فالمعيار ليس العرق والجنس، وإنما الإيمان الديني، وامرأة فرعون وسحرته ومن سلك طريقهم هم مصريون يمجدهم القرآن الكريم.

ثم إن فتح الإسلام لمصر قد تم في ظل موقف إسلامي من اليهود، وصل إلى محاربتهم وإجلائهم عن جزيرة العرب ـ قاعدة الدولة الإسلامية وسياج المقدسات الإسلامية ـ وفي ظل موقف إسلامي أدان تحريف اليهود لتوراة موسى ـ عليه السلام ـ في ظل

(١) المرجع السابق ص٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٢٢، ١٢٤.

obeikandl.com

لعنات صبها القرآن الكريم على أحبارهم ورهبانهم في عشرات الآيات.

فكيف يكون الموقف الإسلامي وتكون الثقافة الإسلامية هي الرؤية اليهودية عن مصر ـ على هذا النحو المزعوم ـ؟!.

ـ وإذا نحن استخدمنا منهاج «وشهد شاهد من أهلها» و«من فمك أدينك» فإن أحد أشد المؤلفات عداء للفتح الإسلامي لمصر، وتشويهًا لصورته، يورد قول عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق.هـ ٦٥ هـ ٦١٦ ـ ٦٨٤م): «ولما خلق الله آدم، مثّل له الدنيا، شرقها وغربها، سهلها وجبلها، وأنهارها وبحارها، وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر رآها أرضًا سهلة، ذات نهر جار، مادته من الجنة، تنحدر فيه البركة، ورأى جبلًا من جبالها مكسوًّا نورًا، لا يخلو من نظر الرب، عز وجل، إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات قال: أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك مسكة، تدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة مطبقة، رحيمة، لا خَلَتْك يا مصر بركة، ولا زال بك حَفَظَة، ولا زال منك مُلك وعِزّ، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلًا، كَثَّر الله رزقك، وضرعك، وزكّى نباتك، وعظمت بركتك وخصبك، ولا زال فيك يا مصر ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عداك شر، ثم يغور خيرك..»[1].

فهل هذه الصورة التي رسمها الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص لمصر، وهو الذي شارك في فتحها تحت قيادة أبيه عمرو بن العاص هي صورة مصر في الثقافة اليهودية كما يزعم المرجفون؟!.

٥ـ وتمضي الافتراءات على الفتح الإسلامي لمصر، فتزعم أن هذا الفتح قد مثل «انتكاسة حضارية لمصر، إذ ماذا يمكن أن يقدم البدوي الذي لا يطول به المقام، أو الاستقرار، الذي يصبح رزق يومه هو الهم العام له ولعشيرته، دون التفات إلى إنتاجه

(١) سناء المصري (حكايات الدخول) ص١٩٢، ١٩٣. طبعة سينا للنشر. القاهرة سنة ١٩٩٦م. والكتاب ينقل عن ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة).

obeikandi.com

الحقيقي، وماذا يمكن أن تنتج الصحراء غير القسوة والتوحش وازدهار ثقافة الغزو والسلب والنهب، **والتي كانت ملمحًا في حياة العرب قبل الإسلام وبعده»؟!.**

ثم يمضي هذا الافتراء، فيورد وصف ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) للأعراب، الذين استحكمت فيهم عوائد التوحش فصار لهم خُلقًا وجِبلة لا ينقادون للسياسة، وتتنافى طبائعهم مع العمران، وكلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعونٍ انْتَهبوه، فإذا تم اقتدارهم بالتغلب والملك بطلت السياسة وخربَ العمران»![1].

يورد المفترون وصف ابن خلدون للأعراب المتوحشين، ويلصقونه بالعرب المسلمين، الذين نشئوا في حواضر الحجاز واليمن، والذين هذبهم الإسلام، وتربوا في مدرسة النبوة، والذين احتضنوا وأحيوا المواريث الحضارية للبلاد التي فتحوها ـ كتبًا وعلومًا وتماثيل ومؤسسات دينية ـ والذين مصروا الأمصار ـ ومنها «الفسطاط»، التي مثلت امتدادًا للعاصمة الوطنية المصرية، التي رمزت ـ تاريخيًّا ـ لعهد الاستقلال ـ والذين أقاموا مدنية زاهرة تعلمت منها الدنيا، والذين عرف الفكر والدين على أيديهم التعددية لأول مرة في التاريخ الإنساني.

كما يتجاهل أصحاب هذه المفتريات حقيقة أن مصر ـ عند الفتح ـ كانت فراغًا حضاريًّا، بفعل القهر الحضاري الذي أناخ عليها لعشرة قرون، ومن ثم فلم يصبها الفتح الإسلامي بالانتكاسة الحضارية، وإنما أحياها، فواصلت عطاءها الحضاري القديم بروح إسلامي جديد وفريد.

ـ وفي هجاء العرب والعقل العربي، تمضي الافتراءات فتزعم «أن احتقار الزراعة والفلاح هي أحد ثوابت العقل العربي قبل الإسلام وبعده وحتى الآن»[2].

ونحن نسأل:

من هم الفلاحون والزارعون الآن في أودية أنهار العالم العربي؟ أليسوا عربًا؟!

(١) (الوطن الأم) ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٥٣.

obeikandl.com

وإذا صح هذا الزعم المفترى، وكان العرب يحتقرون الزراعة فكيف اتهمهم هؤلاء المرجفون المفترون بأنهم كانوا ـ في مصر ـ استعمارًا استيطانيًّا، حل في الأرض والزراعة محل المصريين؟!

٦ـ وتمضي المفتريات فتزعم «أن شروط التمييز العنصري بين العرب والمصريين قد عُرفت منذ بداية الغزو العربي لمصر»![1]

وهو افتراء يتجاهل أن الإسلام قد حول الإثنيات إلى أمة واحدة، وأنه قد جعل التمييز العنصري «عصبية جاهلية منتنة» طوى صفحاتها، ونهى عنها، ووضع قاعدة: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»؛ لأن التكريم الإلهي هو لمطلق بني آدم، ولعموم الإنسان، وأن هذه المبادئ قد تحولت ـ في الواقع الإسلامي ـ إلى حياة معيشة، قننتها وحرستها الوثائق الدستورية الإسلامية ـ من عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران سنة ١٠ هـ إلى العهدة العمرية لأهل القدس سنة ١٥هـ إلى عهد الإمام علي بن أبي طالب للأشتر النخعي (٣٧هـ ـ ٦٥٧م) واليه على مصر، الذي قال له فيه: «الناس صنفان: أخ لك في الدين، ونظير لك في الخلق»[2].

٧ـ وفي الوقت الذي تمتلئ فيه كتب التاريخ بوصايا رسول الله بأهل مصر؛ يتلقط المرجفون عبارة غريبة ينسبونها إلى عبد الله بن عباس (٣ ق.هـ ـ ٦٨هـ ـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م) ـ رضي الله عنهما ـ تقول: «إن المكر عشرة أجزاء، تسعة منها في القبط، وواحدة في سائر الناس»![3]

ولا ندري كيف يقبل عاقل نسبة هذه العبارة إلى ابن عباس، الذي تربى على وصايا رسول الله ﷺ بقبط مصر، الذين لهم مع الرسول ﷺ وقومه صهر ونسب. فهل صهر الرسول ﷺ ونسبه هم الذين حازوا تسعة أعشار المكر الموجود في هذا الوجود؟! أم أن الغرض مرض، وثقافة الكراهية السوداء تعمي البصائر وليس فقط الأبصار؟!

٨ـ وللتقليل من قيمة الفتح الإسلامي لمصر، وللحط من عبقرية العسكرية الإسلامية ـ التي فتحت في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون ـ؛ تمضي الافتراءات فتقول: «إن عمرو بن العاص قد غزا المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية»[4].

(١) المرجع السابق. ص١٥٦.
(٢) انظر في ذلك كله: الوثائق التي نشرناها بكتابنا (الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق) طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ٢٠٠٨م. وكتابنا (حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان) طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.
(٣) (حكايات الدخول) ص٢٠١.
(٤) المرجع السابق. ص ١٠٩.

obeikandi.com

وفي هذا الافتراء تجاهل لواقع الفتح وحقائقه.

فلقد كان الفتح الإسلامي لمصر، بالنسبة للرومان، هو معركة الوجود وعن ذلك يقول هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م): «إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم».

ولقد فتح المسلمون الشام والعراق والخليج وفارس في عام واحد، بينما استغرق فتح مصر نحوًا من خمس سنوات!.

ولقد وجد عمرو بن العاص ـ بمصر ـ ١٢٠,٠٠٠ جنديًّا رومانيًّا، في حصون وراءها حصون، كما كان البحر الأبيض ـ يومئذ ـ بحيرة رومانية خالصة، يأتي منها المدد الذي لا ينقطع لجيوش الرومان بمصر.

ولقد ذكرت مصادر التاريخ ـ العربية والأجنبية ـ أن القتال في موقعة «الفرما» قد استغرق نحو شهرين وفي موقعة «بلبيس» استغرق نحو شهر، وفي موقعة «أم دنين» ـ المقس ـ استغرق شهرين وفي موقعة «حصن بابليون» استغرق سبعة أشهر وأن حصار الإسكندرية قد استغرق أربعة عشر شهرًا فكيف ـ مع هذا ـ يكون التهوين من هذا الفتح التاريخي المبين؟!

ثم كيف يتجاهل أصحاب هذه الافتراءات تاريخ العسكرية الرومانية، وإمكاناتها ـ وهي أشهر من أن يتم تجاهلها ـ وفيها وعنها كتبت الموسوعات، التي تقول: «.. ولقد برع الرومان، ومن بعدهم البيزنطيون في التكتيك الحربي أو التخطيط للعمليات الحربية، وعرف عندهم كعلم أطلق عليه «فن الحرب»، وانفرد بعض المؤرخين البيزنطيين بالكتابة عن هذا الفن؛ فقد كانت دراسة الظروف الملائمة للحركات العسكرية واجبًا ضروريًّا قبل المجازفة بدخول الحرب؛ ولذا أصبح الهرب المصطنع، والمباغتة، والهجوم الليلي، وعمل الكمائن، والخداع، والمفاوضات التي تهدف إلى كسب الوقت، كلها كانت وسائل مقبولة، وأساسية في التخطيط العسكري الروماني.

وفي العمليات العسكرية كانوا في كثير من الأحيان يفضلون الدهاء عن استخدام القوة، إذا كان هذا كافيًا لكسب النصر، كما آمنوا في تكتيكاتهم بأن كل الحروب التي يخوضونها ضد الأعداء ما هي إلا حروب صليبية، والنصر فيها من عند الرب، والمؤرخ البيزنطي «بسللوس» يقول: «كانت القوة العسكرية مصدر قوة

obeikandl.com

الدولة الحقيقية». كما يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» على أن «مسلحة الإسكندرة وحدها ـ إبان الفتح ـ كان تعدادها يبلغ ٥٠,٠٠٠ جنديًّا»[١].

٩ ـ وفي الوقت الذي يشهد فيه الأسقف «يوحنا النقيوسي» ـ وهو شاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر ـ بأن عمرو بن العاص «**كان يأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من أموال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام**»[٢].

ويقول فيه المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة (١٨٤٧ ـ ١٩٠٥م): «.. ولقد استعان عمرو بن العاص في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم **حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي**، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلًّا منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط، ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، **وكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية.**

وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة على أقساط، في آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد. وبالجملة، فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان»[٣].

في الوقت الذي يشهد فيه المؤرخون الأقباط ـ القدماء منهم والمحدثون ـ هذه الشهادات لعمرو بن العاص والفتح الإسلامي، نرى المرجفين يفترون ويزعمون: «أن العرب قد أقروا نظم الجباية الرومانية ونفس الموظفين البيزنطيين والطرق والأساليب التي اعتادوها في العصر البيزنطي»[٤]«وأن عمرو بن العاص قد نهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى»[٥].

فمن نصدق؟! أنصدق كبار المؤرخين القبط ـ ومنهم شاهد العيان على الفتح الإسلامي؟ أم الذين أعمت أبصارهم وبصائرهم ثقافة الكراهية السوداء؟!

(١) د. صبري أبو الخير سليم (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٤٨، ١٤٩. طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠١م.. [وغير المعارك التي أشرنا إلى مواقعها كانت هناك معارك شرسة في «مريوط» ـ على النيل بين مصر والإسكندرية، و«سُلْطَيْس» ـ وهي من قرى مصر القديمة ـ و«سخا» ـ في دلتا النيل ـ و«بَلْهِيت»،و«كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ و«الكريون» ـ قرب الإسكندرية ـ و«فرطا» ـ من قرى مصر القديمة، و«الخيس» ـ من كور الخوف الغربي ـ حتى لكأن الرومان قد جعلوا من مدن مصر وقراها حصونًا،دار فيها وعندها القتال.

(٢) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ص ٢٠١. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة دار عين. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٣) يعقوب نخلة روفيلة (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٤ ـ ٥٧. تقديم: د. جودت جبرة. طبعة مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٤) (الوطن الأم) ص١٤٨.

(٥) (حكايات الدخول) ص١١٥.

obeikandl.com

● ويبدو أن كثرة الأكاذيب وضخامتها لابد أن توقع الكذبة في التناقضات التي تفضحهم، وفي ذلك رأينا الذين افتروا على عمرو بن العاص بتهم نهب الأموال الكثيرة وارتكاب الآثام التي لا تحصى، يمضون فيقولون إنه قد جمع من مصر لنفسه «ثروة طائلة»، وأنه «قد خَلَّف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبًا، وسبعين بهارًا دنانير[١]، وجلد ثور مملوءة أردبان بالمصري. وثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق (الفضة) ـ ألف درهم، وغلة مائتي ألف دينار بمصر، وضيعتَه المعروفة بالوهط[٢] قيمتها عشرة آلاف ألف درهم ـ حوالي مليون درهم ـ (كلا بل عشرة ملايين) ـ، وفي بستانه بالطائف ـ تعريش الوهط ـ ألف ألف عود، كل عود بدرهم»![٣]

فبعد هذه الصورة التي ألحقت ثراء عمرو بن العاص بقارون، شاء الله أن يوقع هؤلاء الكذبة في التناقض الفاضح لأكاذيبهم، فرأيناهم يقولون: «إن عثمان بن عفان عندما عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، كان عمرو ـ في الثروة ـ صفر اليدين، حتى قال له عثمان: «قَمُلَت والله جُبَّتُكَ منذ نزعتُك عن العمل»![٤] فأين إذًا هذه الثروة التي جمعها وخَلَّفها، إذا كانت جُبَّتُه قد انتشر فيها القَمْل بعد عزله عن ولاية مصر؟! ولكنها ثقافة الكراهية السوداء التي تعمي وتصم أصحابها فتوقعهم في التناقضات الفجة الفاضحة للأكاذيب!

١٠ـ وفي الحط من قيمة الفتح الإسلامي، يذهب الكذَبَةُ المرجفون إلى وصف الجيش الفاتح «بأن أكثره كانوا من ضعاف الإيمان المرتدين، مع الأسود العنسي في اليمن! ومن العاطلين المتنطعين في أسواق مكة ومن الصعاليك وقطاع الطرق من مثل أبي ذر الغفاري»[٥].

هكذا وصف الكذبَةُ الجيش الإسلامي الذي أنجز فتح الفتوح ـ بمصر ـ في صدر الإسلام!.

ونحن نسأل أصحاب هذه الافتراءات:

هل كان الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري (٣٢ هـ ـ ٦٥٢م) الذي قال فيه الرسولﷺ: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر» والذي عاش مجاهدًا في الفتوحات الإسلامية، ومناضلًا في سبيل العدل الاجتماعي؛ هل كان صعلوكًا؟!

(١) البهار: شيء يوزن به، يتراوح بين ثلاثمائة وألف رطل. كما يطلق على إناء كالإبريق.
(٢) بالطائف.
(٣) (حكايات الدخول) ص٧٥.
(٤) المرجع السابق. ص٨٢.
(٥) (الوطن الأم) ص١٢٧، ١٢٩. و(حكايات الدخول) ص٥٨.

obeikandl.com

وإذا كان الجيش الفاتح لمصر قد ضم بعضًا من الذين سبق أن ارتدوا عن الإسلام ـ باليمن ـ مع الأسود العنسي (١١هـ ٦٣٢م) فإن هذه الردة قد طويت صفحتها، وعاد الناس ـ في اليمن ـ جميعًا إلى الإسلام، وحسن إسلامهم، وأسهموا في الفتوحات، وكان فتح مصر ـ الذي شاركوا فيه ـ بعد تاريخ هذه الردة بأكثر من عشر سنوات. ثم، ألم يكن جمهور جيل الصحابة الفريد الذين أقاموا الدين، وأسسوا الدولة، ومهدوا للحضارة ـ ممن عبدوا ـ قبل الإسلام ـ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟! ثم أصبحوا التجسيد للتوحيد والتنزيه والمثل الأعلى للشمائل الإسلامية التي بهرت حتى الأعداء؟!

وخالد بن الوليد (٢١هـ ٦٤٢م) ألم يكن هو قائد الشرك والوثنية الذي هزم المسلمين في أحد، ثم أصبح سيف الله منذ اللحظة التي اهتدى فيها إلى الإسلام، ومثله في ذلك عمرو بن العاص؟ ثم ألم يكن عمر بن الخطاب ـ في الجاهلية ـ هو الفظ الغليظ، ثم أصبح منذ أن هداه الله للإسلام؛ الملهم الفاروق؟!.

لقد شارك في هذا الجيش الفاتح عشرات من الصحابة الذين تربوا في مدرسة النبوة، والذين سبق لكثيرين منهم المشاركة في فتوحات الشام والعراق والخليج وفارس، كما وصف رسول الله ﷺ أجناد هذا الجيش ـ تحديدًا ـ بأنهم خير أجناد الأرض عندما قال: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض». فقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ولم ذلك يا رسول الله؟. فقال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة»[١] فهل خير أجناد الأرض ـ أهل الرباط في سبيل الله ـ هم «العاطلون المتنطعون الصعاليك قطاع الطرق!! ـ كما زعم المرجفون؟!

وهل من المعقول أن ينهض آلاف الصعاليك المتنطعين بطي صفحة الاستعمار الروماني الذي هيمن على الشرق لعشر قرون؟!

١١ـ ويبلغ الكذب على الفتح الإسلامي لمصر الذروة عندما يزعم المرجفون «أن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعدادًا كبيرة من المصريين، وأن صفوف العبيد الأسرى من القبط امتدت من مصر إلى المدينة وأن صفوف السبايا قد بلغت المدينة ومكة واليمن»![٢] وإذا كان تعداد الشعب المصري ـ عند الفتح ـ قد

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٣،٤. و(النجوم الزاهرة) جـ١ ص٢٩.
(٢) (حكايات الدخول) ص١٤٩.

obeikandl.com

كان ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وطول الطريق البري من مصر للمدينة يبلغ ١,٦٠٠ ك؛ فإن الصف الواحد من مصر إلى المدينة يسع ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة والصفوف ـ وأقلها ثلاثة ـ تسع ٩,٦٠٠,٠٠٠ نسمة ـ أي قرابة أربعة أضعاف سكان مصر في ذلك التاريخ!! فهل وعى هؤلاء الكذبَةُ المرجفون معنى هذا الذي كتبوا؟! وأما كان لهم أن يحترموا عقول القراء؟! فضلًا عن احترام حقائق التاريخ؟! وأمانة الكلمة التي تخطها الأقلام؟!

إن مصادر التاريخ ـ وقد رجع إليها هؤلاء الكذبة- تقول: إن بعض القرى المصرية ـ مثل «بهليت» و«الخيس» و«سلطيس» قد أخطأت وقاتلت مع الروم، فأسر منها المسلمون عددًا من هؤلاء المقاتلين، لكن عمر بن الخطاب حرر هؤلاء الأسرى، وردهم إلى مصر؛ ليسْري عليهم الصلح الذي صالحه المصريون ـ بواسطة المقوقس ـ عظيم القبط ـ قبل فتح الإسكندرية، وهزيمة الروم[1].

لكن ثقافة الكراهية السوداء قد أعمت أبصار هؤلاء الكذبة، فوقعوا في هذه التناقضات التي قادتهم إلى الحديث العبثي عن صفوف الأسرى والسبايا التي امتدت من مصر إلى المدينة ومكة واليمن!!

١٢ـ وتأبى ثقافة الكراهية السوداء ـ للفتح الإسلامي لمصر ـ إلا أن تمتد بالكذب والحقد إلى ما قبل الفتوحات فتتحدث هذه الأكاذيب عن مارية القبطية، التي أهداها المقوقس إلى الرسول ﷺ سنة ٧هـ، أي قبل الفتح الإسلامي لمصر بأكثر من عشر سنوات، فتصور الأكاذيب حياة مارية في بيت النبوة بالكارثة التي «اقتلعت مارية من جذورها عندما اقتيدت إلى رحلة إجبارية يغلب عليها طابع القسر والاستعباد وأحاط بها اللون الأصفر ـ لون الرمل ـ بدلًا من اللون الأخضر، والجفاف بدلًا من المياه الجارية. لقد ذهبت إلى المدينة؛ حيث حوّلها الحجاب المفروض على النساء إلى مواطن الغربان تاركة وراءها التماثيل الصغيرة ـ المساخيط ـ وأدوات حضارية كثيرة كان من الصعب تعويضها»![2].

(١) المرجع السابق. ص١٥٠ ـ وهو ينقل عن البلاذري وابن عبد الحكم.
(٢) المرجع السابق. ص٢٥، ٣١، ٣٣، ٤٣.

obeikandl.com

وهنا نسأل:

ألم تكن بالمدينة ـ يومئذ ـ واحات زراعية وبساتين وجنان؟

وهل كان الرمل، ولونه الأصفر وقفًا على المدينة والجزيرة العربية؟ أم أن مساحة الرمل والصحراء كانت ولا تزال تمثل ٩٦٪ من مساحة مصر؟!.

وهل كانت مارية القبطية ـ النصرانية التي تقدس مريم العذراء ـ عليها السلام ـ متبرجة تبرج الجاهلية الأولى، حتى تتأذى من حشمة الحجاب؟!

وألم يكن بين نساء النبي ﷺ وخاصة عائشة ـ من تلعب بالتماثيل الصغيرة ـ والتي تسمى خيل سليمان ـ كما جاء في السيرة والأحاديث التي صورت هذا الجانب الإنساني والراقي في بيت النبوة؟![1]

أم أن ثقافة الكراهية السوداء قد جعلت الغشاوات والأقفال على أبصار وبصائر هؤلاء الكذبة المرجفين؟!

ويا ليت أمر مارية القبطية ـ في بيت النبوة ـ قد وقف به المرجفون عند هذه الحدود، فلقد ذهبوا إلى القول الغريب والعجيب؛ فقالوا: «إن النبي كان معجبًا بها ويكاد يقضي معها معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها»!![2].

فإذا علمنا أن مارية القبطية قد أُهديت إلى رسول الله ﷺ سنة ٧ هـ ـ وهو عام المراسلات التي بدأت بها السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وعام غزوة خيبر وغزوة وادي القرى، وبعدها كانت غزوة «مؤتة» وفتح مكة وغزوة حنين وغزوة الطائف سنة ٨ هـ وبعدها كانت غزوة تبوك سنة ٩هـ..

فهل كان القائد لكل هذه الغزوات، الذي يحمل على عاتقه هموم الدين والدنيا وشئون السلم والحرب «يقضي مع مارية القبطية معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها» تاركًا الدين والدنيا، والدولة والحروب وتاركًا زوجاته الأخريات أيضًا؟!

أم أن ثقافة الكراهية السوداء قد قادت أصحابها إلى هذا العبث اللامعقول؟!

ثم ألا يستحق هؤلاء الذين يتشدقون بادعاء المناهج العلمية والموضوعية في البحث والـدرس والتأريخ، عندما يتركون النصوص قطعية الثبوت والدلالة التي تحدثت عن خُلق الرسول

(١) انظر ذلك في البخاري ومسلم وابن ماجه والقرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ٤ ص٢٧٢. طبعة دار الكتب المصرية ـ وابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ ٨ ص٤٣. طبعة دار التحرير. القاهرة.

(٢) (حكايات الدخول) ص٣٦، ٣٩.

obeikandl.com

ﷺ وسيرته ونمط حياته ومنها آيات سورة المزمل، التي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾ (المزمل: ١ـ٨).

وهو الخلق والسلوك الذي جعل إمام أولي العزم من الرسل قرآنًا يمشي على الأرض، وعابدًا تتورم قدماه من طول الوقوف بين يدي ربه، والراعي الصالح لكل المستضعفين في الأرض، وفي ذات الوقت الفارس الذي إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق في القتال يحتمي به صناديد فرسان الصحابة، حتى ليكون هو الأقرب إلى الأعداء من هؤلاء الصناديد الفرسان.

هل هذا النموذج الأمثل لهذه التربية الربانية التي أشار القرآن إلى تجسيدها في هذا النبي عندما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ (المزمل: ٢٠).

هل هذا النموذج لهذا الخلق الرباني، الذي حمل أعباء «القول الثقيل». والذي قاد تغيير اتجاه الدنيا والدين والحضارة والتاريخ هو الذي يستحق أن يفتري عليه المفترون، فيقولون عنه: إنه كان يقضي حياته مفتونًا بجارية القبطية، يكاد يقضي في مخدعها «معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها» ثم ينشرون هذا الافتراء السفيه زاعمين أنه من ثمرات المناهج العلمية التقدمية في دراسة التاريخ؟!.

١٣ـ وبعد الافتراء على الفتح والفاتحين، جاء الافتراء على التاريخ الإسلامي لمصر، ومن نماذج هذا الافتراء:

تصوير الفتح الإسلامي في صورة الجناية على سكان مصر، وذلك بزعم أنه «عندما سقطت مصر في أيدي العرب، كان الأقباط يمثلون جملة عدد السكان تقريبًا، أي حوالي ٢٠ مليونًا على الأقل»[١] وهناك من جعل رقم التعداد ١٢ مليونًا[٢].

(١) د. سليم نجيب (الأقباط عبر التاريخ) ص١٧٤. طبعة دار الخيال. القاهرة سنة ٢٠٠١م.
(٢) (الوطن الأم) ص٢٣٤.

openkandil.com

ثم يوجهون الاتهام للعصر الإسلامي الذي جعل تعداد المصريين ـ بعد ثلاثة عشر قرنًا ـ وعند الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م ـ فقط ٢,٤٤٩,٠٠٠ نسمة[١].

وفي الرد على هذه الدعاوى نلفت النظر إلى كم التناقضات التي وقع فيها المناوئون لإسلام مصر وإسلامية تاريخها:

– فالدكتور جاك تاجر يقول: «إن إحصائية مسيحية تذكر أن ستمائة ألف شخص كانوا يدفعون رسمًا للبطرك عند الفتح الإسلامي لمصر»[٢].

فإذا افترضنا أن رب الأسرة هو الذي كان يدفع الرسم للبطريرك، وأن الأسرة كانت مكونة ـ في المتوسط ـ من خمسة أفراد، فمعنى ذلك أن تعداد السكان الأقباط كان حوالي ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ـ عند الفتح الإسلامي ـ.

وإذا نحن عدنا إلى أقدم مصادر التأريخ للفتح الإسلامي لمصر ـ يوحنا النقيوسي ـ نجده يتحدث عن أن قمبيز ـ الفارسي (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) قد غزا مصر «**وأحرق أهلها بالنار حتى صارت كل البلاد قفرًا» ولم يوجد من يسير بها من الناس، وحتى طيور السماء، ولما جاء الملك الفارسي قورش (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق.م)، ردّ الأسرى المصريين إلى بلادهم، بعد العام الحادي والأربعين من أسرهم وتدمير بلادهم، وبعد ثمانية وأربعين عامًا من عودة الأسرى المصريين من فارس إلى بلادهم؛ كان عدد المصريين ٥٠٠,٠٠٠ نسمة**[٣] **أي أن تعداد مصر كان نصف مليون بعد نحو قرن من غزو قمبيز.**

لكننا ـ لحسم هذا الأمر ـ أمر التعداد ـ علينا أن نتوجه إلى المصدر الحجة والعمدة، الذي صدر عن المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية ـ بباريس ـ والذي كتبه اثنان من علماء الديموجرافيا الفرنسيين، والذي يمثل كنزًا من الإحصاءات حول السكان في مصر وبلاد المشرق ـ العربي والتركي ـ عبر التاريخ الإسلامي، ففي هذا المصدر سنجد أن سكان مصر قد كان تعدادهم:

(١) المرجع السابق. ص٢٨٥.
(٢) د.جاك تاجر (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٢٠٢، ٢٠٣. طبعة الهيئات القبطية بالمهجر ـ أمريكا ـ كندا ـ أستراليا ـ مدينة جرسي ـ أمريكا سنة ١٩٨٤م.
(٣) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص٧٠ ـ ٧٣.

obeikandl.com

في القرن الأول الميلادي	٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي القرن الرابع الميلادي	٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي سنة ٦٠٠ م	٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة
وعند الفتح الإسلامي سنة ٦٤١م	٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد هشام بن عبد الملك سنة ٧٤٣م	٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد هارون الرشيد سنة ٨١٣ م	٢,٦٧١,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المأمون سنة ٨١٣ ـ ٨٣٣م	٢,٣٦٥,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المعتز بالله سنة ٨٦٩م	٢,٦٤٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد ابن طولون سنة ٨٨٤م	٢,٣٦٥,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٩٧٥م	١,٧٦٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد المستنصر الفاطمي سنة ١٠٩٠م	١,٦٨٣,٠٠٠ نسمة
وفي عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٩م	٢,٣٥١,٠٠٠ نسمة
وفي عهد السلطان المملوكي محمد سنة ١٣١٥م	٤,٢٠٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد السلطان المملوكي برقوق سنة ١٣٨٢م	٣,١٥٠,٠٠٠ نسمة
وفي عهد الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م	٢,٤٩٨,٠٠٠ نسمة[١]

وهنا يبقى السؤال ـ الشبهة ـ: كيف ظل تعداد الشعب المصري ـ عبر ثلاثة عشر قرنًا ـ حول هذا الرقم شبه الثابت بل كيف هبط التعداد زمن الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى ٢,٤٩٨ نسمة، بينما كان قبل ثلاثة عشر قرنًا ـ عند الفتح الإسلامي ـ ٢,٥٠٠٠,٠٠٠.. أي أنه هبط ١٠٠,٠٠٠ نسمة!!

كيف حدث هذا الأمر الغريب؟ وهل كان الحكم الإسلامي وبالًا على مصر؟ ـ كما يزعم المرجفون ـ؟ أم أن لهذا الأمر تعليلًا علميًّا معقولًا؟!

إن مصر هبة النيل، ارتبطت حياتها بفيضانه، وارتبطت تعاستها بانخفاض جريانه.

ومنذ عصر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ سجل التاريخ ارتفاع النيل ـ ورخاء مصر ـ سبع سنوات وانخفاض مياه النيل ـ وفقر مصر ـ سبع سنوات، ومن يتابع مقاييس النيل وأرقام وفائه في كتب التاريخ ـ ومنها (التوفيقات الإلهامية) ـ سيجد هذه الحقيقة ظاهرة للعيان[٢].

(١) فيليب فارج، يوسف كرياج (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٤٦. ترجمة: بشير السباعي. طبعة دار سينا. القاهرة سنة ١٩٩٤م.

(٢) لقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب ـ وهو من تأليف محمد مختار باشا المصري ـ ونشرناه ببيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠م.

obeikandl.com

ونحن إذا رجعنا إلى المصادر التاريخية المعتبرة، سنجد أن تعداد المصريين قد ارتبط بحال النيل، عندما يوافي يزرع الناس ويتوالدون، وعندما يشح ماؤه تقفر الأرض وتنتشر الطواعين والأوبئة ويتناقص عدد السكان، ولقد ظل هذا الأمر ضربة لازب حتى عصر محمد علي باشا الكبير (١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) الذي أنشأ القناطر الخيرية، والرياحات والترع، فعرفت مصر الري الدائم، وتخزين المياه ـ بعد ذلك ـ في خزان أسوان ثم في السد العالي، ومنذ ذلك التاريخ، زادت مساحة الأرض المزروعة، وتوالت زيادة السكان باطراد.

إن المصدر العمدة الذي يضع يدنا على هذه الحقيقة، والذي يفسر لنا ـ ويحل ـ لغز ثبات تعداد السكان في مصر عبر تاريخها القديم والوسيط ـ هو المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م) في كتابه الفذ (إغاثة الأمة بكشف الغمة)، أو (تاريخ المجاعات بمصر) وفي هذا الكتاب عدّد المقريزي المجاعات التي انتابت مصر قبل الإسلام وبعده، وعددها ـ حتى عصره ـ ست وعشرون مجاعة وقع منها ست مجاعات قبل الإسلام وعشرون بعده، ولقد ذكر المقريزي في أسباب هذه المجاعات ثلاثة أسباب:

أولها: الآفات السماوية، كقصور النيل بمصر، وعدم نزول المطر بالشام، والعراق، والحجاز، أو آفة سماوية تصيب الغلال، من سمائم تحرقها، أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، أو ما شابه ذلك.

وثانيها: شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال.

وثالثها: العامل النقدي[١].

ويشير المقريزي إلى جهل من يظن أن هذه المحن والكوارث قد طرأت علي مصر في العهد الإسلامي، فيقول: «**ولقد ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها، ولا مرّ في زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا: لا يمكن زوالها، ولا يكون أبدًا عن الخلق انفصالها، وذلك لأنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون**»[٢].

ثم يعدد المقريزي المجاعات حسب تواريخها التي سبقت ظهور الإسلام والفتح الإسلامي لمصر:

(١) المقريزي (إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات بمصر) ص ٤١. طبعة دار ابن الوليد. دمشق سنة ١٩٥٦م.
(٢) المصدر السابق. ص٤.

obeikandi.com

١- فأول غلاء وقع بمصر كان في زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان **وكان سبب الغلاء ارتفاع ـ (انقطاع) ـ الأمطار، وقلة ماء النيل، فعقمت أرحام البهائم، ووقع الموت فيها.**

٢- ثم وقع غلاء في زمن الملك التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، **وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض وفسدت الزروع.**

٣ـ ثم وقع غلاء في زمن الملك الثالث عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، **وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها.**

٤ـ ثم وقع الغلاء في زمن الملك الثاني والثلاثين من ملوك مصر بعد الطوفان وهذا الغلاء دبر أمر البلاد فيه يوسف ـ عليه السلام ـ.

٥ـ ثم وقع غلاء وجدب هلكت فيه الزروع والأشجار، وفقدت فيه الحبوب والثمار، وعم الموت الحيوانات كلها، وذلك عند مبعث موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون، وكفى إشارة إليه ودلالة عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾** ﴾ (الأعراف:١٣٠).

٦ـ ثم وقع بالأرض، قبل مبعث النبي ﷺ أنواع من البلاء والمحن عمت المعمور من الأرض، وخص مصر منها كثير من الغلاء.

٧ـ ثم جاء الله سبحانه بالإسلام، فكان أول غلاء وقع بمصر في سنة سبع وثمانين من الهجرة ـ (سنة ٧٠٦) ـ والأمير يومئذ بمصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ـ من قبل أبيه ـ فتشاءم به الناس؛ لأنه كان أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر[١].

٨ـ ثم وقع غلاء في الدولة الإخشيدية ـ في محرم سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ـ والأمير يومئذ أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد، فثارت الرعية، ومنعوه من صلاة العتمة ـ (العشاء) ـ في الجامع العتيق.

٩ـ ثم وقع غلاء في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة[٢]، فكثر الفأر في أعمال مصر[٣]، وأتلف الغلات والكروم وغيرها، ثم قصر النيل، فنزع السعر في شهر رمضان.

(١) في (التوفيقات الإلهامية) سنة ٨٦ هـ سنة ٧٠٥م وقف النيل عند ١٨ قيراط ـ ١٣ ذراع.

(٢) في (التوفيقات الإلهامية) أن النيل سنة ٣٣٦هـ سنة ٩٤٧م قد وقف عند ١٧ قيراط ـ ١٤ ذراع ـ وفي السنة التالية ١٥ ذراع.

(٣) في (التوفيقات الإلهامية): فيها كثر الفأر بأعمال مصر، فأتلفت الغلات والكروم، ثم قصر النيل فنزل السعر ثم ارتفع.

obeikandl.com

١٠ـ وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، عظم الغلاء، حتى بيع القمح كل ويبتين[١] ونصف بدينار، ثم طلب فلم يوجد، وثارت الرعية وكسروا منبر الجامع بمصر[٢].

١١ـ ثم وقع غلاء في الدولة الإخشيدية أيضًا، واستمر تسع سنين متتابعة، وابتدأ في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة. **وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعًا وأربع أصابع، فنزع السعر بعد رخص، فما كان بدينار واحد صار بثلاثة دنانير، وعز الخبز فلم يوجد، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح ويبتان بدينار.**

١٢ـ وقصر النيل في سنة ثلاث وخمسين (وثلاثمائة) فلم يبلغ سوى خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع، واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى، حتى صار في النصف من شهر بابه إلى قريب من ثلاثة عشر ذراعًا، ثم زاد قليلًا وانحط سريعًا، فعظم الغلاء، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن، ونهبت الضياع والغلات، وماج الناس في مصر بسبب السعر، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب فمات رجل وامرأة في الزحام، ولم تُصَلّ الجمعة يومئذ. وتمادى الغلاء إلى سنة أربع وخمسين (وثلاثمائة). وكان مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعًا وأصابع. وفي سنة خمس وخمسين (وثلاثمائة) كان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعًا وأصابع، وقصر مده وقلت جريته.

وفي سنة ست وخمسين (وثلاثمائة) لم يبلغ النيل سوى اثني عشر ذراعًا وأصابع، ولم يقع ذلك في الملة الإسلامية وكان على إمارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الإخشيدي، فعظم الأمر من شدة الغلاء واستمر الغلاء إلى سنة ستين (وثلاثمائة) فاشتد فيها الوباء، وفشت الأمراض، وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم، فكان من مات يطرح في النيل، فلما دخلت سنة إحدى وستين (وثلاثمائة) انحل السعر فيها، وأخصبت الأرض، وحصل الرخاء.

١٣ـ ثم وقع الغلاء في أيام الحاكم بأمر الله في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، **وكان سببه قصور النيل، فإن الزيادة بلغت إلى ستة عشر ذراعًا وأصابع**[٣].

(١) الويبة: ستة عشر قدحًا ـ أي كيلتان ـ أي سدس أردب.

(٢) في (التوفيقات الإلهامية): إن قصور النيل في تلك السنة قد استمر تسع سنين متتابعات.

(٣) في (التوفيقات الإلهامية) أن العام السابق سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٦م وقف النيل عند ٢٣ قيراط ـ ١٥ ذراع.

obeikandi.com

١٤ـ فلما كانت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة توقف النيل حتى كسر الخليج في آخر مسرى، والماء علي خمسة عشر ذراعًا وسبعة أصابع، وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعًا وأصابع، فارتفعت الأسعار، ووقفت الأحوال في الصرف. (صرف النقود).

١٥ـ وفي سنة ٤٠١ هـ قصر النيل حتى انتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعًا وأصابع، فارتفعت الأسعار.

١٦ـ وفي سنة ٤٩٣هـ توقف النيل عن الزيادة، فاستسقى الناس مرتين[١]، وارتفع السعر، وكسر الخليج والماء خمسة عشر ذراعًا، فاشتد الأمر.

١٧ـ وبلغت زيادة النيل سنة ثمان وتسعين (وأربعمائة) أربعة عشر ذراعًا وأصابع، فلحقت الناس من ذلك شدائد، وتمادى الحال إلى سنة تسع وتسعين (وأربعمائة) فكسر الخليج في خامس عشر توت، والماء في خمسة عشر ذراعًا، فنقص في تاسع توت، وانحط، فعظم الأمر، وكظ الناس بالجوع.

١٨ـ ثم وقع غلاء في خلافة المستنصر وسببه قِصَر النيل، في سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فاشتدت المسغبة.

١٩ـ ثم قصر النيل في سنة سبع وأربعين (وأربعمائة)، ونزع السعر إلى ثمانية دنانير للتليس[٢]، واشتد الأمر على الناس، وصار الخبز طرفة فتلاشت الأمور، واضمحل الملك ودام ذلك بينهم سنوات خمسًا أو ستًّا، ثم قصر النيل، فنزعت الأسعار نزوعًا بدد شملهم.

٢٠ـ وفي سنة ٤٥٧ هـ ـ (أي بعد أربع سنوات من المجاعة السابقة) ـ وقع ـ في أيام المستنصر ـ الغلاء الذي فحش أمره، وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وكان سبب ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الري، وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي الزراعية.

٢١ـ ثم وقع غلاء في أيام الآمر بأحكام الله، بلغ القمح فيه كل مائة إردب بمائة وثلاثين دينارًا.

(١) أي صلوا صلاة الاستسقاء مرتين.

(٢) التليس ـ والتليسة ـ كيس من الصوف أو الخوص، تعبأ فيه الحبوب، ويسع ما زنته مائة وخمسين رطلًا. ـ (انظر في معاني المصطلحات الاقتصادية: د.محمد عمارة (قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية) طبعة دار السلام. القاهرة سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.

obeikandl.com

٢٢ـ ثم وقع غلاء شنيع، وقحط ذريع، في أيام الحافظ لدين الله إلا أنه لم يستمر.

٢٣ـ ثم وقع غلاء في أيام الفائز، بلغ فيه الإردب خمسة دنانير؛ **لقصور النيل عن الوفاء.**

٢٤ـ ثم وقع الغلاء في الدولة الأيوبية، وسلطنة العادل أبي بكر بن أيوب، في سنة ست وتسعين وخمسمائة، **وكان سببه توقف النيل عن الزيادة، وقصوره عن العادة، فانتهت الزيادة إلى اثني عشر ذراعًا وأصابع، فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع، فهب هواء أعقبه وباء وفناء، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع، فلما كان آخر الربيع احترق[١] ماء النيل في برمودة حتى صار المقياس في بر مصر، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة[٢]، وتغير طعم الماء وريحه، ثم أخذ الماء في الزيادة قليلًا قليلًا إلى السادس والعشرين من مسرى، فزاد إصبعًا واحدًا، ثم وقف أيامًا، وأخذ في زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعًا وستة عشر إصبعًا، ثم انحط من يومه، ثم لم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله، وكان أهل القرى قد فنوا، حتى أن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة، ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر، فإنها فقدت حتى بيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارًا، والهزيل بستين دينارًا، وجافت الطرق كلها[٣]، بمصر والقاهرة، وسائر دروب النواحي بجميع الأقاليم، من كثرة الموتان، وما زرع، على قلته، أكلته الدودة، ولم يمكن رده لعدم التقاوي والأبقار، وكانت الأفران إنما يوقد فيها بأخشاب البيوت، وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل. وكان الرجل بالريف، في أسفل مصر وأعلاها، يموت وبيده المحراث، فيخرج آخر للحرث فيصيبه ما أصاب الأول. واستمر النيل ثلاث سنين متوالية لم يطلع منه إلا القليل، فبلغ الإردب من القمح إلى ثمانية دنانير، وكان الواحد من أهل الفاقة إذا امتلأ بطنه بالطعام، بعد طول الطوى، سقط ميتًا، فيدفن منهم كل يوم العدة الوافرة، حتى أن الملك (العادل) قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[٤] فإن الناس كانوا يتساقطون في الطرقات**

(١) من التحاريق ـ أي الجفاف ـ.
(٢) أي جف النيل من حول جزيرة الروضة، حيث المقياس.
(٣) أي امتلأت بالجيف.
(٤) أي ربع مليون.

obeikandl.com

من الجوع، وتعطلت الصنائع وتلاشت الأحوال، وفنيت الأقوات والنفوس، حتى قيل سنة سَبْع افترست أسباب الحياة، فلما أغاث الله الخلق بالنيل، لم يوجد أحد يحرث أو يزرع، فخرج الأجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بأنفسهم. ولم تزرع أكثر البلاد لعدم الفلاح، وعدمت الحيوانات في جملة.

٢٥ـ ثم وقع غلاء بالدولة التركية[١]، بسلطنة العادل كتبغا، في سنة ست تسعين وستمائة، وذلك أن بلاد برقة لم تمطر، فقحطت بلادها، وجفت الأعين منها، وعمّ أهلها الجوع لعدم القوت، فخرج منها نحو ثلاثين ألف نفس بعيالهم وأنعامهم يريدون مصر، فهلك معظمهم جوعًا وعطشًا، ووصل اليسير منهم في جهد وقلة.

وتأخر الوسمي[٢]، ببلاد الشام حتى فات أوان الزرع، ووقف النيل بمصر عن الزيادة، فتحركت الأسعار. وتأخر المطر ببلاد القدس والساحل حتى فات أوان الزرع، وجفت الآبار، ونضب ماء عين سلوان بالقدس.

وكان مبلغ النيل في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وتسعين (وستمائة) ـ ستة عشر ذراعًا وسبعة عشر إصبعًا، ونزل سريعًا، وكسر بحر أبي المنجاة[٣] قبل أوانه بثلاثة أيام خوفًا من النقص، فبلغ كل إردب من القمح مائة درهم، والشعير إلى ستين، والفول إلى خمسين، واللحم إلى ثلاثة دراهم للرطل.

ودخلت سنة خمس وتسعون (وستمائة) وبالناس شدة من الغلاء، إلا أنهم يمنون أنفسهم بمجيء الغلال الجديدة، وكان قد قرب أوانها، فعند إدراك الغلال هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوبًا عاصفًا، وحملت ترابًا أصفر كسا زروع تلك البلاد، فهافت كلها، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية، ومرت إلى الصعيد الأعلى، فهاف الزرع، وفسد الصيفي من الزرع، فتزايدت الأسعار، وأعقبت تلك الرياح أمراض وحميات عمت الناس، وأقحطت مكة، ورحل أهلها، ونزحت سكان قرى الحجاز، وعُدم القوت ببلاد اليمن، واشتد الوباء، وقحطت بلاد الشرق، وعظم الوباء في الأرياف والقرى،

(١) أي المملوكية.
(٢) أي الخريف.
(٣) ترعة لري أراضي الجنوب الشرقي للدلتا.

openkanal.com

وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر، وعظم الموتان، ثم أعيا الناس كثرة الموت، فبلغت عدة من يرد اسمه في الديوان السلطاني في اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف نفس، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم، بحيث ضاقت بهم الأرض، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى، وخلت الضياع من أهلها، حتى أن القرية التي كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين.

٢٦ـ وفي أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة وقع الغلاء بالديار المصرية في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعز القمح، ووصل كل إردب إلى سبعين درهمًا، والفول إلى خمسين، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم، ولا يكاد يوجد، وعدم القمح من الأسواق.

٢٧ـ ثم وقع الغلاء في أيام الأشرف شعبان، وسببه قصور النيل سنة ست وسبعين وسبعمائة، فلم يبلغ ستة عشر ذراعًا في الخليج، فانحط الماء، وارتفع السعر، فبلغ القمح كل إردب إلى مائة وخمسين درهمًا، والشعير إلى مائة، والخبز إلى رطل ونصف بدرهم، وعزت الأقوات وقل وجودها، فمات الكثيرون من الجوع حتى امتلأت الطرقات، وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس. ودام هذا الغلاء سنتين، ثم أغاث الله الخلق وجرى النيل، فارتوت الأراضي، وحصل الرخاء، بعدما خامر اليأس القلوب، وظن كثير من الناس دوام تلك الشدة، واستبعد حصول الفرج، وهي حادثة شاهدناها، ومحنة أدركناها.

٢٨ـ وفي سنة ست وتسعين وسبعمائة قصر جري النيل، فشرق أكثر الأراضي، وتعطلت من الزراعة، فارتفعت الأسعار، ثم أغاث الله سبحانه وتعالى الخلق بكثرة ماء النيل، حتى عم الإقليم كله، فأحب الناس لذلك الكثير من البذر، وكانت الغلات بأيديهم قليلة، لعدم زراعة أكثر البلاد في سنة ست وتسعين (وسبعمائة).

وهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين.

obeikandi.com

٢٩ـ وفي سنة ست وثمانمائة قصر مد النيل، فشنع الأمر، وارتفعت الأسعار حتى جاوز الإردب القمح أربعمائة درهم، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس، وعمت البلية وطمت حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف عن نصف الناس، وعم الموتان حتى نفقت الدواب سنة ست وسنة سبع (وثمانمائة) وعز وجودها، وبلغت أثمانها إلى حد نستحي من ذكره، ونحن الآن في أوائل سنة ثمان (وثمانمائة)[1].

***

هكذا حسم الواقع التاريخي لنهر النيل ذلك الجدل، عندما أجاب على التساؤل.

ـ كيف ظل تعداد سكان مصر شبه ثابت منذ ما قبل الفتح الإسلامي إلى حملة بونابرت سنة ١٧٩٨م طوال ثلاثة عشر قرنًا؟

فعلماء الديموجرافيا الفرنسيون كشفوا عن أن سكان مصر في القرن الأول الميلادي كانوا ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة وفي القرن الرابع الميلادي كانوا ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة وقبيل الفتح الإسلامي ـ سنة ٦٠٠ م ـ كانوا ٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة وعند الفتح ـ سنة ٦٤١م ـ كانوا ٢,٥٠,٠٠٠ نسمة.

والمقريزي ـ رائد التأريخ الاجتماعي في الحضارة الإسلامية، وفقيه الواقع ـ في الخطط ـ وفي إغاثة الأمة ـ كشف عن تاريخ المجاعات والأوبئة والطواعين التي سببها الجفاف الدوري للنيل منذ ما قبل الإسلام ـ بل منذ ما قبل طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وذلك عندما رصد قرابة الثلاثين جفافًا صحبتها الأوبئة والطواعين وهلاك الناس مع هلاك الحرث والزرع، **حتى أن القرية التي كان تعدادها خمسمائة نفس هلكت كلها، ولم ينج منها إلا فرد أو اثنين أو ثلاثة، وحتى مات نصف سكان مصر في عام واحد بسبب جفاف النيل وانتشار المجاعات والأمراض**، ولقد كان الناس في تلك المحن يعجزون عن تكفين الموتى، فيلقون بهم في الآبار والحفر والمقابر الجماعية، وبعبارة المقريزي: «**فهذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين**» ـ وليس فقط في السنة التي وقع فيها الجفاف ـ.

(١) المقريزي (إغاثة الأمة بكشف الغمة) ص ٧ ـ ٤٣.

obeikandl.com

لقد كانت الأرض تُزرع بنظام ري الحياض ـ أي مرة واحدة ـ عندما يوافي النيل، وكانت تشرق وتبور عندما لا يوافي، ولم يكن هناك تحكم في ماء النيل يخزّن فيضاناته لسنوات الجفاف والتحاريق؛ ولذلك ظل هذا هو حال سكان مصر منذ ما قبل الإسلام إلى أن قامت دولة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا، فتحكم المصريون بمياه النيل، وبدأ التخزين لمياه الفيضانات ـ بالقناطر الخيرية أولًا ـ وسد أسوان ثانيًا والسد العالي ثالثًا ـ ومنذ ذلك التاريخ عرفت مصر الري الدائم للأرض، الذي يجعلها تنتج ثلاث زرعات، وجعل السكان يتزايدون من أقل من ثلاثة ملايين ـ عند قيام دولة محمد علي ـ إلى أكثر من تسعين مليونًا ـ عند كتابة هذه السطور ـ!.

ولقد يسأل سائل:

ـ لماذا لم ينجز سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ الذي تولى خزائن الأرض، وأنقذ البلاد من غوائل جفاف السبع سنوات العجاف ـ لماذا وقفت إصلاحاته عند تخزين فائض حبوب سنوات الفيضانات السبع، ليأكل منها الناس في سنوات الجفاف السبع، ولم يقم بتخزين مياه الفيضانات لتروي الأرض في سنوات الجفاف؟

والجواب عن هذا التساؤل كان في طبيعة جغرافية البقعة التي قامت فيها دولة الهكسوس التي عاش فيها يوسف ـ عليه السلام ـ فالهكسوس قبائل سامية، غزت مصر (١٦٥٠ ـ ١٥٦٠ ق.م) وعاشوا في قطعة من أرض مصر ـ بالشمال الشرقي ـ وكانت عاصمتهم «أواريس» في محافظة الشرقية الحالية ـ ولم يكن لإصلاحات يوسف ـ عليه السلام ـ أن تتحكم بمياه النيل؛ لأن ذلك لا يتم إلا بجنوب مصر ـ عند أسوان ـ حيث كان الحكم للفراعنة، وليس للهكسوس ويوسف ـ عليه السلام ـ.

ولذلك وجدنا السيطرة على مياه النيل، وتخزين فيضاناته الهاجس الذي راود الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٧٥ـ٤١١هـ ٩٨٥ ـ ١٠٢١م) فاستدعى عالم الهندسة والبصريات الحسن بن الهيثم (٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٨م) ليدرس طوبوغرافية أسوان، بهدف إقامة السد الذي يخزن مياه النيل، وينقذ مصر من المجاعات

obeikandl.com

والأوبئة والفناء، لكن الحسن بن الهيثم ـ بعد أن درس طوبوغرافية النيل عند أسوان ـ خاف من «أطوار» الحاكم بأمر الله، فهرب!. وظل النيل على حاله وظلت التحاريق والمجاعات والأوبئة تفتك بسكان مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

وجدير بالذكر أن فقه الواقع التاريخي لتعداد السكان المصريين، والذي ارتبط بوفاء النيل وجفافه، ذلك الذي أرخ له رائد التأريخ الاجتماعي تقي الدين المقريزي، قد وجد صداه في كتابات علماء الديموجرافيا الفرنسيين الذين رصدوا «**العجز المتصل الذي سجله مقياس الروضة لمياه النيل ـ في العصر الفاطمي ـ من سنة ١٠٢٢م إلى سنة ١١٢١م ـ والذي أدى إلى أن تفقد مصر ثلث سكانها**»[١].

كما رصدوا تكرار هذه الظاهرة في دولة المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ ـ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م) **عندما «تجاوز سكان مصر رقم ٤ مليون سنة ١٣٤٥م ثم جاء الطاعون الكبير سنة ١٣٤٨م الذي أفنى آنذاك ثلث السكان وهبط بسكان القاهرة من ٦٠٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٣٤٠م إلى ٤٣٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٣٤٨م»**[٢].

كما يشيرون إلى أن الطاعون الكبير ٥٤٢ ـ ٦٠٠م قد أدى إلى حرمان مصر من خمس سكانها[٣].

كما يتخذون من مقياس حجم الجزية ـ ضريبة الرأس ـ عند الفتح الإسلامي ـ دليلًا على أن سكان مصر ـ يومئذ ـ كان تعدادهم ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ـ وليس ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرون مليونًا) ـ كما يرجف المرجفون ـ فيقول هؤلاء العلماء ـ الفرنسيون: «**إن الجبايات الضريبية الأولى المسجلة على أوراق البردي تبين المبلغ الإجمالي للإيرادات السنوية للجزية، ضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين، وهي ١٢ مليونًا من الدراهم غداة الفتح سنة ٦٤١م: تشير شواهد متباينة إلى مبلغها بالنسبة للفرد ٢٤ درهمًا مصريًّا. ولما كان دافع الضريبة يمثل في المتوسط أسرة من خمسة أفراد، فلابد أن مصر كانت مأهولة آنذاك بنحو ٢,٥ مليون من السكان، كلهم غير مسلمين**»[٤].

ولم يخلط هؤلاء العلماء «الجزية» «بالخراج» على الأرض الزراعية فخراج الأرض ثابت بثبات المساحة، وبصرف النظر عن دين من يزرع هذه الأرض أما «الجزية» ـ ضريبة الرأس ـ والتي

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق. ص ٣٥، ٣٦.
(٣) المصدر السابق. ص ٢٢. (ولقد سبق وأوردنا ما ذكره المقريزي من فقد مصر سنة ٨٠٦هـ نصف سكانها بسبب جفاف النيل).
(٤) المصدر السابق. ص٢٢

obeikandl.com

هي بدل عن الجندية بالنسبة لغير المسلمين ـ فلقد تناقصت بتناقص عدد غير المسلمين وتزايد من دخل منهم في الإسلام، وبعبارة هذا المصدر الفرنسي: «**فلقد فُتحت مصر وهي بلد منخفض السكان، أصابه الوهن، وبعد الفتح.. رأينا الجزية تهبط، بينما يحافظ الخراج على مركزه، بما يشير إلى انهيار الجماعة المسيحية، بالرغم من الاستقرار الديموجرافي المحيط. إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة ـ ٢٦٪ بين عامي سنة ٦٤٤م وسنة ٦٦١م، ثم ٣٣٪ في عهد معاوية (٢٠ ق.هـ ـ ٦٠هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م) وحده، بين عامي سنة ٦٦١م وسنة ٦٨٠م وفي سنة ٨٠٠ م لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢٪ من المسيحيين، إلى جانب ٧٧٪ من المسلمين، و١٪ من اليهود وفي سنة ١٨٨٢م وصلت نسبة المسيحيين بمصر إلى ٨٪ من السكان**»[١].

هذا هو علم علماء التاريخ والاجتماع والديموجرافيا.

كان تعداد سكان مصر عند الفتح الإسلامي ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة وبسبب الجفاف الدوري للنيل؛ ظل هذا هو متوسط السكان بها حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، عندما تحكمت مصر في مياه النيل.

أما المرجفون، فلقد زعموا أن سكان مصر ـ عند الفتح ـ كان ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرون مليونًا).. و«أن فيضان النيل بريء من المجاعات والتصحر» وأن الإسلام والحكم الإسلامي «كان له الدور الأول والأخير في تحويل مصر من سلة غلال العالم إلى بلد يستجدي قوت يومه»[٢].

فمن نصدق؟.. علم العلماء؟ أم أكاذيب المرجفين؟!

ثم من قال إن مصر ـ قبل الفتح ـ كانت سلة غلال العالم؟

لقد كانت مصر ـ كما سيأتي ـ تطعم مدينة روما وليس الإمبراطورية الرومانية، ـ فضلًا عن العالم ـ أربعة أشهر في العام وليس كل العام.

ولكنها ثقافة الكراهية السوداء، التي تعدت الإسلام، إلى الفتح الإسلامي، إلى حقائق التاريخ.

(١) المصدر السابق، ص٣٢.
(٢) (الوطن الأم) ص١٩٧.

obeikandl.com

١٤ـ ولأن الكذب عند خصوم الإسلام وأعـداء الفتوحات الإسلامية، قد غدا حرفة تغذي ثقافة الكراهية السوداء ومنها يرتزق الكذبة المرجفون ـ وذلك مصداقًا لقول لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأمثالهم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) فلقد ارتفع سقف الأكاذيب على الفتح الإسلامي حتى رأينا ـ في القرن العشرين ـ من يحيي أكذوبة ـ فنَّدها علماء التاريخ ـ تقول: إن العرب الفاتحين لمصر هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر الراشد الفاروق عمر بن الخطاب!!. «**وأن الفتح العربي كان من الوجهة الثقافية، أشد إيذاء للإنسانية من الانقضاض المغولي. الأمر الذي يدعونا إلى تصديق صحة إحراق العرب للمكتبة، وذلك استنادًا إلى هذا المسلك المدمر الذي أبداه العرب في فترات مختلفة في ظل حكومات مختلفة. يدعونا إلى تصديق الكُتّاب الذين اتهموا الخليفة عمر بن الخطاب بأنه هو الذي أصدر الأمر إلى عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية**»[1].

ويبدو أننا بـإزاء هذه «الأسطورة المكذوبة» و«الكذبة الأسطورية» مطالبون بأن نعيد تذكير القراء بما كتبه أساطين المؤرخين الغربيين، والذين كانوا ـ في تأريخهم للفتح الإسلامي ـ في معسكر المناوئين للإسلام وفتوحات المسلمين، على وجه الخصوص!؛ فالحق ما شهدت به الأعداء.

إن المؤرخ الإنجليزي الشهير «بتلر»ـ صاحب كتاب (فتح العرب لمصر)ـ يحكي موقفه إزاء حرق مكتبة الإسكندرية، فيقول: «**لقد بدأنا درسنا على الاعتقاد الشائع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية. غير أننا اضطررنا إلى أن نرى أن التاريخ قد ظلم العرب في ذلك ظلمًا فاحشًا؛ إنه لم يرد للمكتبة ذكر مكتوب قبل مضي خمسة قرون ونصف قرن على فتح الإسكندرية. ولقد روى بعض المؤرخين ضياع هذه المكتبة في حريق سنة ٤٨م عندما كان قيصر محصورًا في حي البروكيون، يحيط به المصريون من كل جانب، وعليهم قائدهم «أخيلاس»، فأحرق السفن التي في الميناء، وقيل إن النار امتدت من هناك فأحرقت المكتبة وأفنتها، ولقد أكد**

(١) (الأقباط عبر التاريخ) ص١٧٢ ـ ١٧٤.

obeikandl.com

ذلك المؤرخ «بلوتارك» (٥٠ ـ ١٢٥م)، وصدق على ذلك المؤرخ (سنيكا) (٤ ق.م ـ ٦٥م)، وذكر أن عدد الكتب التي كانت بها وأحرقت ٤٠٠,٠٠٠»، وأكد ذلك ـ أيضًا ـ «ديوكاسيوس» كما أكده كذلك المؤرخ «أميانوس سلينوس» (٣٣٠ ـ ٤٠٠م).. الأمر الذي يجعلنا نصدق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة في حريق الإسكندرية على يد قيصر سنة ٤٨م».

ولقد أنشئت مكتبة (أخرى) أصغر في معبد السرابيوم أوائل التاريخ المسيحي، ولقد قُضي عليها أواخر القرن الرابع على يد المسيحيين، يقودهم «تيوفيلوس» (٣٨٥ ـ ٤١٢م) إبان النضال الديني ضد الوثنية سنة ٣٩١م ـ عندما ثار غوغاء المسيحيين وعامتهم ممن أعماهم التعصب للدين المسيحي.

ولو كان بالإسكندرية مكتبة عامة كبرى قبل الفتح، ثم أحرقها العرب عند فتحهم لها؛ لما أغفل ذكر هذا الحادث رجل مثل «النقيوسي»، وهو كاتب قريب العهد بالفتح، وقد أفاض في ذكر الإسكندرية، وفصّل في وصف فتحها.

إن قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من الفتح. ونحن إذا حللنا هذه القصة ألفيناها سخافات مستبعدة، ينكرها العقل. وإن الرجل الذي تذكر القصة أنه كان أكبر عامل بالمكتبة قد مات قبل غزوة العرب للإسكندرية بزمن طويل».

وإن رواية ابن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م) لهذه القصة لا تعدو أن تكون **من أقاصيص الخرافة التي ليس لها أساس في التاريخ** فهو أول من ذكر هذه القصة ـ في كتابه (تاريخ الدول) ـ وهو مسيحي يعقوبي، من أصل إسرائيلي، صار أسقفًا ثم بطريقًا لطائفته[1].

هكذا شهد «بتلر» ومن قبله «بلوتارك» و«سنيكا» و«ديوكاسيوس»ـ من كبار المؤرخين الغربيين ـ على أن القول بحرق العرب لمكتبة الإسكندرية هو «**سخافات مستبعدة» ينكرها العقل، وأقاصيص خرافية ليس لها أساس في التاريخ**».

لكننا رأينا قاضيًا قبطيًّا ـ هاجر إلى كندا وتزعم النشاط القبطي هناك ـ يردد هذه السخافات والخرافات، ويضعها في رسالة

(١) د. الفريد بتلر. (فتح العرب لمصر) ص٤٢٠، ٤٢٤ ـ ٤٣٠، ٤٣٩ ـ ٤٤١، ٣٩٣، ٣٨، ترجمة: محمد فريد أبو حديد. طبعة مكتبة مدبولي. القاهرة سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٩م.

obeikandi.com

دكتوراه، يقدمها في باريس!! وذلك حتى يلقي جريمة حرق مكتبة الإسكندرية على عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص والعرب والمسلمين ويبعدها عن الوثنية الرومانية وعن «غوغاء المسيحيين وعامتهم» الذين قادهم أسقف كنيسة الإسكندرية «ثيوفيلوس» سنة ٣٩١م ـ كما قال صاحب (فتح العرب لمصر) وكما فصّل ذلك صاحب (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) الذي قال: «لقد أنشأ بطليموس الثاني (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق.م) مكتبة السرابيوم التي حوت ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ مجلدًا، وأحرق معظم هذه الكتب أثناء حصار «قيصر» للإسكندرية، مما جعل أنطونيو (٨٣ ـ ٣٠ ق.م) يقوم بإهداء «كليوباترا السابعة» (٦٩ ـ ٣١ ق.م) ٢٠٠,٠٠٠ مجلدًا من مكتبة برجامة، وللمرة الثانية تم إحراق جزء من هذه المكتبة ـ أثناء الحريق الذي أشعله الإمبراطور «ماركوس أورليوس» (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) في الحي الملكي بالإسكندرية سنة ٢٧٢، وفي عهد الإمبراطور «ثيورسيوس الأول» (٣٧٩ ـ ٣٩٥م) سنة ٣٩١م، ثم الإحراق الكامل لمكتبة السرابيوم على يد المسيحيين، حتى يقضوا على التراث الوثني تمامًا. فقد قام «ثيوفيلوس» (٣٨٥ ـ ٤١٢م) أسقف كنيسة الإسكندرية بحملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية الوثنية وتدمير المكتبة وإشعال النار فيها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية، كما هلكت أثناء هذه الحملة مكتبات المعابد الأخرى، وقد نجا من هذا الحريق بعض الكتب، مما جعل مكتبة الإسكندرية ومتحفها مركزًا للمعرفة والتعليم حتى الفتح الإسلامي.

وبعد الفتح الإسلامي، واصل المسلمون ـ ضمن إحيائهم مواريث الحضارات السابقة ـ التعليم في الإسكندرية، فوفد يعقوب الإدريسي (٤٩٣ ـ ٥٦٠هـ ـ ١١٠٠ ـ ١١٦٥م) إلى الإسكندرية ليتم تعليمه بجامعتها»[١].

ولقد استخار خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١هـ ـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م) ربه، ثم أمر بترجمة كتب الطب الموجودة بمكتبة الإسكندرية، وعم تدريس الطب بالحواضر الإسلامية، بعد أن كان الطب حكرًا على الملوك والخاصة فيما قبل الإسلام!.

(١) د. صبري أبو الخير سليم (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٦٧. طبعة دار عين، القاهرة سنة ٢٠٠١م.

obeikandl.com

تلك هي قصة مكتبة الإسكندرية، بين حقائق التاريخ والسخافات الخرافية التي ينكرها العقل ـ التي يرددها الآن من يحملون الدكتوراه ـ التي تُناقش وتجاز في باريس؟!.

١٥ ـ وفرية أخرى تجاوزت الفتوحات الإسلامية لتطال الإسلام وحضارته وتاريخه، ولتطعن في السماحة والتعددية اللتين تميز بهما الإسلام وتفرد دون غيره من الديانات تلك هي الفرية التي تزعم أن هناك «**إجماعًا على حظر بناء معابد أو كنائس جديدة في المدن والتجمعات السكانية الهامة في العالم الإسلامي، ويعزو البعض منشأ تعليمات هذا الحظر إلى عمر بن الخطاب، في حين ينسبها آخرون إلى النبي محمد نفسه**»[١].

وهذه الفرية الغريبة عن فكر الإسلام وواقع تاريخه، تتجاهل أن القرآن الكريم قد جعل التدافع بين الحق والباطل سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، وأن من ميادين هذا التدافع الحفاظ على دور العبادة، لا الإسلامية وحدها، وإنما دور عبادة كل الديانات، حتى لقد رتب النص القرآني دور العبادة هذه وفق التتابع التاريخي، فقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج: ٤٠).

كما تتجاهل هذه الفرية نص الوثيقة الدستورية النبوية ـ (صحيفة المدينة) ـ التي عقدها رسول الله ﷺ دستورًا لدولة المدينة، كدولة رعيتها متعددة الديانات والتي جاء فيها: «.. وأن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأن لهم البرّ دون الإثم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحصن دون الإثم»[٢].

كما تتجاهل هذه الفرية الوثيقة الدستورية التي عقدها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران ـ باليمن سنة ١٠ هـ ـ والتي تجاوزت إعطاء الأمان على المقدسات ودور العبادة للنصارى ـ فضلًا عن الأنفس والأموال ـ تجاوزت ذلك إلى حماية هذه المقدسات ودور العبادة بما تتم به حماية الأنفس والمقدسات الإسلامية سواء بسواء.

(١) (الأقباط عبر التاريخ) ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص١٥ ـ ٢١.

obeikandl.com

فلقد نصت هذه الوثيقة الدستورية ـ بعبارات لا نظير لها في تاريخ الحقوق على امتداد تواريخ الأمم والديانات والحضارات ـ نصت على عهد الرسول ﷺ ـ «**لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض، جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملتهم أينما كانوا بما أحفظ به نفسي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم، وإن احتاجوا في مرمّة بيعهم وصوامعهم، أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رِفْد من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعاونوا، ولا يكون ذلك دَيْنًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم، ومنّة لله ورسوله عليهم**»[1].

وحتى لا تكون هناك شبهة تقْصُر هذه الحماية على المقدسات التي كانت موجودة قبل الفتوحات الإسلامية ـ خصوصًا وأن بعض مصادر الفقه الإسلامي قد نهت عن استحداث كنائس في المدن الجديدة التي مصّرها المسلمون بعد الفتوحات ـ حتى لا يكون هناك سبيل لهذه الشبهة؛ نشير إلى حقيقة أن المدن التي مُنع فيها استحداث الكنائس، كانت ـ يومئذ ـ خططًا ومعسكرات ومساكن للجنود المسلمين الفاتحين ـ وذلك مثل «الفسطاط» ـ بمصر ـ و«كوفة» و«البصرة» ـ في العراق ـ. وبديهي أن لا تبنى كنائس في مدن ليس بها نصارى، وهي خطط ومعسكرات لجيوش الإسلام والدليل على هذا الذي نقول، إن هذه المدن عندما تحولت من معسكرات لجيوش المسلمين إلى حواضر سكنية، أقام فيها النصارى، أقيمت فيها دور العبادة لغير المسلمين حدث ذلك في «الفسطاط» و«الكوفة» و«البصرة» وكل المدن التي بدأت خالصة للمسلمين، ثم سكن فيها غير المسلمين ـ مثل القطائع والقاهرة ـ والتي تقوم فيها الكنائس ومعابد اليهود حتى الآن شاهدة على هذا الذي نقول.

(١) المصدر السابق. ص١١١ وما بعدها.

obeikandl.com

ولقد شهد المؤرخ القبطي «يعقوب نخلة روفيلة»ـ صاحب كتاب «تاريخ الأمة القبطية» بذلك فقال: «ولما شرع عمرو بن العاص في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين في عمارتها، ولا سيما رجال الحكومة، الذين كان معظمهم إن لم نقل كلهم من الأقباط، **فشيدوا بها القصور العالية والدور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة**، والمنتزهات والبساتين النضرة، وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران، وهكذا أصبحت الفسطاط بهمة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس في تشييدها مدينة زاهية زاهرة تحاكي في البهجة والرونق مدينة منف القديمة التي شيدتها أيادي الفراعنة، وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمن، **حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام، على حين أن المسلمين كانوا يصلّون ويخطبون في الخلاء، وأنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص**»[١].

وعندما كان والٍ من الولاة يحيد عن هذا المبدأ الإسلامي وهذه السنة الشرعية ـ مثلٌ والي مصر يزيد بن حاتم، الذي هدم الكنائس المستحدثة بعد الفتح ـ عقب ثورة مسيحية بمدينة «سخا» سنة ١٥٠هـ سنة ٧٦٧م ـ وقف فقهاء الإسلام إلى جوار المسيحيين مطالبين بإعادة بناء الكنائس التي هدمت، ومن هؤلاء الفقهاء الإمام الليث بن سعد (٩٤ ـ ١٧٥هـ ٧١٣ ـ ٧١٩م) والقاضي عبد الله بن لَهيعة (٩٧ ـ ١٧٤هـ ٧١٥ ـ ٧٩٠م). وفي فتواهما قالا: «**إن جميع كنائس مصر قد بنيت وحدثت بعد الفتح**»؛ لأن اليعاقبة ـ «القبط» ـ كانوا مضطهدين في عهد الاحتلال البيزنطي، وكان الروم الملكانيون يسيطرون على الكنائس جميعها، ولقد حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس والأديرة من الاغتصاب الروماني، لا ليتخذها مساجد للمسلمين، وإنما ردها للقبط الذين كانوا محرومين منها، فهي هبة الإسلام لنصارى مصر ـ بعد الفتح الإسلامي ـ.

ولقد جاء في هذه الفتوى ـ التي وضعت في التطبيق ـ تلك العبارة الجامعة والبالغة: «**إن بناء الكنائس يعد من عمارة البلاد**»[٢].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥١، ٥٢.

(٢) المقريزي (الخطط) جـ ٣ ص٥٣٧، ٥٣٨. طبعة دار التحرير. القاهرة. والكندي ـ أبو عمر محمد بن يوسف (كتاب الولاة وكتاب القضاة) ص ١٣٢. تحقيق: رفن كست. طبعة بيروت سنة ١٩٠٨م. ويذكر آدم متز ـ في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ١ ص٩١. أن المنع من إنشاء دور عبادة جديدة كان تشريعًا رومانيًّا طبقه الرومان على اليهود، فكانوا يسمحون لهم بترميم ما تهدم فقط دون بناء كنائس جديدة. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

obeikandl.com

ويزكي هذا الذي نقول، واقع انتشار الكنائس النصرانية والمعابد اليهودية على امتداد أرض عالم الإسلام، عبر تاريخ الحضارة الإسلامية، وكذلك شهادة الأنبا شنودة الثالث (١٩٢٣ ـ ٢٠١٢م) في خطاب أمام الرئيس محمد أنور السادات (١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٨١م) ـ أثناء وضع حجر الأساس لمستشفى «مار مرقس» ـ بالقاهرة ـ في ١١ – ١٠ – ١٩٧٧ وهي الشهادة التي تحدث فيها الأنبا شنودة الثالث عن الفاروق عمر بن الخطاب ـ الذي يفترى عليه الكذبة فينسبون غليه منع استحداث الكنائس ـ فقال البابا شنودة: «**إن الخليفة عمر بن الخطاب حينما اقترب من الموت أوصى من يأتي بعده في الخلافة من جهة أهل الكتاب بأمرين:**

الأول: وفاء العهود التي أعطيت لهم.

والأمر الثاني، قال فيه: ولا تكلفوهم فوق ما يطيقون.

ولقد انتهت حياة عمر بن الخطاب على الأرض، وانتهت مدة خلافته، ولكن الخير الذي عمله لم يمت بموته إطلاقًا وما يزال حيًّا الآن يملأ الآذان، ويملأ الأذهان ويحيا مع الناس على مدى الأزمان».

كما شهد البابا شنودة للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧١ ـ ١٢٥هـ ـ ٦٩٠ ـ ٧٤٣م) فقال: إنه ابتنى للبطريرك في أيامه بيتًا إلى جوار قصره، وكان يستمع منه إلى صلواته وعظاته».

وشهد للإخشيد محمد بن طغج (٢٦٨ ـ ٣٣٤هـ ٨٨٢ ـ ٩٤٦م) فقال: «إنه كان يبني الكنائس بنفسه، ويتولى ترميمها. وكنيسة أبي سرجة ـ في مصر القديمة ـ اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون، وكنيسة أبي سيفين ـ للقديس مار مرقيوس ـ بمصر القديمة ـ تولى الاهتمام بها الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ـ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م)»[1].

هكذا شهد البابا شنودة الثالث على أن تاريخ الإسلام قد جسد عهد الرسولﷺ بحماية وصيانة مقدسات غير المسلمين، وهي شهادة تدحض الفرية التي زعم أصحابها أن رسول الإسلام وعمر بن الخطاب قد فرضا حظر بناء المعابد والكنائس الجديدة في المدن والتجمعات السكانية الهامة في العالم الإسلامي.

(١) مجلة (وجهات نظر) عدد ١٣٣ ـ فبراير سنة ٢٠١٠م ـ ص ٢٦، ٢٧.

obeikandl.com

وغير شهادة التاريخ فإن شهادة الواقع المعاصر والمعيش تنقض هذا الافتراء.

فمصر الإسلامية، بنت ـ من أموال الدولة ـ أكبر كاتدرائيات الشرق الأوسط للأقباط الأرثوذوكس، تلك التي وضع حجر أساسها الرئيس جمال عبد الناصر (١٣٣٦ ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٧٠م) في ٢٤ يوليو سنة ١٩٦٥م، وافتتحها في ٢٥ يونيو سنة ١٩٦٨م.

وعلى أرض مصر الإسلامية تبلغ مساحة دور العبادة المسيحية ـ كنائس وأديرة ـ ما يسع صلاة ٣٤,٠٠٠,٠٠٠ من المصلين ـ وفق مقاييس الأمم المتحدة ـ التي تجعل للمصلي من ٤٦ سم إلى ١٠٠ سم ـ بينما تعداد المسيحيين ـ بمصر ـ وفق إحصاء «مركز بيو» الأمريكي ـ في أكتوبر سنة ٢٠٠٩م ـ أربعة ملايين ونصف المليون! نصفهم مهاجرون في الخارج!.

أما المسلمون المصريون ـ وفق تعداد ومقياس الأمم المتحدة ـ فإن لديهم عجزًا في عدد المساجد ومساحتها ـ يحتاجون بسببه إلى ٥٢,٠٠٠ مسجد، مساحة كل مسجد ٥٠٠ مترًا أي يحتاجون إلى مساجد مساحتها ٤٨,٠٠٠,٠٠٠ مترًا مربعًا؛ كي يتساوى المسلمون المصريون بالمسيحيين المصريين، وحتى تتساوى مساجد مصر بكنائسها!!(١).

١٦ ـ ورغم ما تواتر في تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، من ترحيب القبط ـ بتعليمات من البطرك الوطني الهارب من الرومان ـ «بنيامين» (٣٩هـ ـ ٦٥٩م) ـ وتقديمهم المساعدات للجيش الفاتح منذ المعركة الأولى ـ معركة «الفرما» في شمالي سيناء ـ ثم في مختلف معارك هذا الجيش ضد الرومان رغم تواتر الأخبار بذلك، وشهرة هذه الوقائع؛ فإن بعض المرجفين يزعمون أن القبط لم يرحبوا بالفاتحين العرب، وأنهم في الحدود القصوى ـ قد وقفوا مترقبين!

ولكن مصادر التاريخ تأبى إلا أن تشهد على أن القبط قد تجاوزوا «مساعدة» الجيش الفاتح إلى «الاشتراك معه في قتال الروم».

(١) بهاء علي قرنة: (دراسة مساحة الكنائس والأديرة) ـ شبكة المعلومات العالمية. وانظر ـ كذلك ـ د. محمد عمارة (الاستغلال الأمريكي للأقليات) ص٨٦ ـ ٩٦. طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة ٢٠١١م.

obeikandl.com

فبعد تمام الفتح، حاول الرومان العودة لاسترداد مصر مرة أخرى، وجاء الأسطول الروماني بقيادة «مانويل» واقتحم الإسكندرية سنة ٢٥هـ، وقتل كل من وجدهم بها من المسلمين، فأسرع القبط ـ بقيادة البطرك الوطني «بنيامين» ـ إلى طلب النجدة من الخليفة عثمان بن عفان، وطلبوا منه إعادة عمرو بن العاص ليقود معركة التحرير من جديد، فعاد عمرو إلى مصر، وانخرط القبط في الجيش الذي قاده، واستعادوا تحرير الإسكندرية وما حولها من جديد، ويشهد على هذه الحقيقة ـ حقيقة انخراط القبط في القتال ضمن الجيش الإسلامي ـ المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة، فيقول: «وكان الروم في القسطنطينية يفكرون في استرجاع مصر فجردوا حملة لإنقاذها من يد العرب، فساروا بمراكبهم حتى دخلوا الإسكندرية ـ (سنة ٢٥ هـ)ـ وحاولوا النزول بها، **فمنعهم المقوقس من ذلك، فنزلوا بساحلها، وانضم إليهم من كان بها من الروم الذين نقضوا العهد. أما المقوقس والقبط فتمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة ما استطاعوا، فخرج الروم منها،** وصاروا يعيثون فسادًا في القرى وينهبون ما بها ويقتلون سكانها، فخاف أهل مصر سوء العاقبة، **واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم**؛ لتدربه على الحرب وهيبته في عين العدو، فأجاب طلبهم، وأرسله فصار يحاربهم ويقاتلهم حتى أبعدهم عن المدينة، فركبوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم بالخيبة، ولم يرجعوا. **وكان القبط يحاربون مع العرب، ويقاتلون الروم خوفًا من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع القبط في يدهم مرة أخرى**»[١].

ويؤكد هذه الحقيقة، المؤرخ الإنجليزي «بتلر» فيقول: «**لقد وقف «بنيامين» مع قومه القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم، ويظهرون الود، حافظين بذلك عهدهم الذي تعاهدوا عليه، وكان عمرو بن العاص في أثناء سيره ببلاد مصر السفلى ـ (إبان الفتح) ـ يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم الجسور، ويقدمون له ما كان في استطاعتهم تقديمه، بعدما حل بهم من نهب الروم وغصبهم**»[٢].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٨ـ ٥٩.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٨٥، ٤٨٧، ٤٨٨.

obeikandl.com

١٧ـ وأمام غرابة هذه المفتريات ـ على الفتح الإسلامي ـ والتي تهاوت الواحدة تلو الأخرى أمام حقائق التاريخ التي قدمناها ـ لابد للقارئ من أن يتساءل عن الدوافع التي دفعت أصحاب هذه الأكاذيب والمفتريات إلى كتابة ما كتبوا ونشر ما نشروا وإذاعة ما أذاعوا ـ رغم الحقائق الساطعة سطوع الشمس، والتي تدحض هذا الذي كذبوا؟!

ونحن لا نجد جوابًا على هذا التساؤل المشروع، سوى أن مخزون الكراهية السوداء للإسلام وحضارته وتاريخه عند هؤلاء الكذبة المفترين قد أعمى منهم البصائر والأبصار، فكانت هذه المفتريات.

ويكفي أن نضرب مثلًا على ذلك بالكاتبة الماركسية/ اللينينية/ الستالينية/ الماوية/ التي تؤمن إيمانًا راسخًا بالمادية الجدلية، والمادية التاريخية. وكيف قادها الحقد على الإسلام، والكراهية لتاريخه، إلى التنكب بأبسط مناهج البحث العلمي والتاريخي فبدلًا من البحث عن تاريخ الخلفاء في المصادر التي أرخت لهذا التاريخ، رأيناها تستبدل تاريخ (حياة الحيوان) بتواريخ الخلافة والخلفاء!. فتقدم صورة خرافية وعبثية ولا معقولة للخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٥٤ ـ ٩٩ هـ ٦٧٤ ـ ٧١٧م) تقول فيها: «إنه كان نهمًا في الأكل. وقد نُقل عنه أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية، وأربعين بيضة، وأربع وثمانين كلوة بشحمها، وثمانين جردقة (رغيفًا)، ثم أكل مع الناس في السماط العام».

وأنه دخل ذات يوم بستانًا له، وكان قد أمر قيمِّه أن يجني ثماره، ويستطيب له، وكان معه أصحابه، فأكل القوم حتى اكتفوا، واستمر هو يأكل، فأكل أكلًا ذريعًا، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها، ثم أقبل على الفاكهة فأكل أكلًا ذريعًا، ثم أتى بقَعْب ـ (قدح ضخم) ـ مملوء سمنًا وسويقًا وسكر فأكله أجمع، ثم سار إلى دار الخلافة، وأتى بالسماط»[1]!!

هكذا كتبت صاحبة المادية الجدلية والمادية التاريخية، عن الخلافة والخلفاء، كما كتبت عن صفوف الأسرى والسبايا المصريين ـ أثناء الفتح ـ التي امتدت من مصر للمدينة ومكة واليمن، وهي

(١) (حكايات الدخول) ص١٩٤.

obeikandl.com

صفوف تعني أن تعداد هؤلاء الأسرى والسبايا يزيد على العشرة ملايين بينما كان تعداد جميع سكان مصر ـ يومئذ مليونان ونصف المليون!!

ونموذج آخر من نماذج تشويه التاريخ الإسلامي قدمه صاحب كتاب (الوطن الأم) عن الدولة الفاطمية، عندما زعم أن «الهبات التي كانت تمنح لأبواق النظام ـ من أدباء وشعراء وفقهاء وقراء القرآن ـ كان العطاء فيها ما بين ٥٠٠ دينارًا و٢,٠٠٠ دينارًا»[١].

فإذا علمنا أن ذات الكاتب يذكر أن إيجار الفدان ـ يومئذ ـ كان ١,٥ دينارًا[٢] فهل كانت هبة قارئ القرآن تساوي إيجار أكثر من ٦٦٦ فدانًا؟!

كما يذكر أن ميزانية الأزهر ـ في عهد الحاكم بأمر الله ـ كانت ٦٣,٣٥٠ دينارًا[٣] فهل كانت الميزانية السنوية للأزهر لا تزيد عن عطاء ٣١ من قراء القرآن الكريم؟!

فهل هذه «أبحاث»؟! وهل في ذلك أثارة من قواعد البحث التاريخي التي تعارف عليها المؤرخون؟!

أم أن مخزون الكراهية السوداء ـ للإسلام وتاريخه وحضارته وللفتوحات الإسلامية ـ هو الذي جعل حتى أدعياء العلم والمنهج العلمي يسلكون سبيل العبث اللامعقول؛ لتشويه هذا الفتح المبين لكنانة الله في أرضه ـ على النحو الذي عرضناه وفنَّدْناه فيما تقدم من صفحات ـ؟!

(١) (الوطن الأم) ص١٩٥.
(٢) المرجع السابق. ص١٨٥.
(٣) المرجع السابق. ص١٩٥.

obeikandl.com